

سلاح أهل الإيمان

لمحاربة الشيطان في الصلاة وتلاوة القرآن



تأليف الشيخ العلامة الفقيه

عبد الله بن عبد الرزاق العثماني المكناسي

(٩٤٥-١٠٢٧هـ)

بعناية

نزار حمادي

دار الإمام ابن عرفة

تونس

سِلَاحُ أَهْلِ الإِيمَانِ

لِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ فِي الصَّلَاةِ وَتِلَاوَةِ القُرْآنِ

سِلاحُ أهلِ الإيمانِ

لِمُحارَبةِ الشَّيطانِ في الصَّلاةِ وتِلاوةِ القُرآن

تأليفُ الشَّيخِ العلَّامةِ الفقيه

عبدالله بن عبدالرزّاق العُثمانيّ المكناسيّ

(٩٤٥ - ١٠٢٧هـ)

بعِناية

نزار حمّادي



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الصَّلَاةَ عِمَادَ الدِّين، وَشِعَارَ المُسْلِمِين، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ علَىٰ خَاتَمِ الأَنْبِيَاء وَإِمَامِ المُرْسَلِين، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أُسْوَةِ الأَوْلِيَاءِ وَقُدْوَةِ المُتَّقِين، وَعَلَىٰ آلِه وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

وبَعْدُ، فإنَّ أَشْرَفَ أعْمالِ المُسْلِمِينَ علىٰ الإطْلاقِ، إقَامَةُ الصَّلَاةِ باتِّفَاق؛ إِذْ هِيَ أمُّ العباداتِ، ومَجْمَعُ الطَّاعَات، وأسَاسُ جَمِيع الخَيْرات، وَذلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بحِفْظِ أَحْكَامِهَا الظَّاهِرَةِ وَمَنْدُوبَاتِهَا الشَّرْعِيَّة، وَمُرَاعَاةِ آدَابِهَا البَاطِنَةِ وَحُقوقِها القَلْبِيَّة.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**إنَّ في الصَّلَاةِ شُغُلًا**»[1]، فقَالَ الإمامُ القُرْطُبِيُّ فِي شَرْحِهِ: يُفْهَمُ مِنْهُ التَّفَرُّغُ مِنْ جَمِيعِ الأَشْغَالِ، وَمِنْ جَمِيعِ المُشَوِّشَاتِ، وَالإِقْبَالُ عَلَىٰ الصَّلَاةِ بِظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ[2].

وقال الإمامُ النَّووِيُّ: مَعْنَاهُ أَنَّ المُصَلِّيَ وَظِيفَتُهُ أَنْ يَشْتَغِلَ

(١) البخاري (١١٩٩) ومسلم (٥٣٨).

(٢) المفهم (ج٢/ص١٤٦).

بِصَلَاتِهِ، فَيَتَدَبَّرُ مَا يَقُولُهُ، وَلَا يُعَرِّجُ عَلَىٰ غَيْرِهَا[١].

وقال العَلَّامَةُ القَسْطَلَّانِيُّ: إِنَّ فِي الصَّلَاةِ شُغُلًا عَظِيمًا لِأَنَّها مُنَاجَاةٌ مَعَ اللهِ تَعَالَىٰ، تَسْتَدْعِي الاسْتِغْرَاقَ فِي خِدْمَتِه، فَلَا يَصِحُّ فِيهَا الاشْتِغَالُ بِغَيْرِه[٢].

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ فَصَّلَ السَّادَةُ الفُقهاءُ جَمِيعَ الأَحْكَامِ الظَّاهِرَة المُعْتَبَرَةِ فِي شُروطِ صِحَّتِها وَكَمالِهَا، وتَكَلَّمَ عُلمَاءُ القُلوبِ وأَطِبَّاءُ النُّفُوسِ علَىٰ أَحَكْامِهَا البَاطِنَةِ، مِنَ الخُشوعِ والخُضُوعِ وغَيْرِ ذلكَ مِمَّا تتَحَقَّقُ بهِ مقاصِدُهَا السَّنِيَّة، ويُوصَلُ بها إلىٰ ثَمَراتِها العَلِيَّة.

وقَدْ كان مِن السَّابقين لذلك الشَّيْخ الإمامُ الحَكِيمُ مُحَمَّدُ بنُ علي التِّرمذيُّ (ت ٢٨٥) في كتابه «**الصَّلَاةُ ومقاصِدُها**»[٣]، ثُمَّ تَفَرَّقَتْ إشاراتُ الأئِمَّةِ عَلىٰ ذَلِكَ في كُتُبِهِمْ، حَتَّىٰ تصدَّىٰ لِجَمْع بَعْضها الشيخُ الفقيهُ الناصحُ عبدُ اللهِ العُثْمانِيُّ المِكْناسِيُّ (ت١٠٢٧هـ) في رسالَةٍ نَفِيسَةٍ سَمَّاهَا «**سِلَاحَ أَهْلِ الإيمانِ لِمُحارَبَةِ الشَّيْطان في الصَّلاةِ وتِلَاوَةِ**

(١) شرح صحيح مسلم (ج٥/ص٢٧).

(٢) إرشاد الساري (ج٢/ص٣٥٠).

(٣) حقق نصر زيدان، وقدَّم له الشيخ عبد الحليم محمود، ونشر سنة ١٩٦٥م بمطابع دار الكتاب العربي بمصر.

القُرْآن» ، وَهِيَ الَّتِي نُقدِّمُ لهَا ، راجِينَ مِنَ اللهِ أَنْ يُعِينَنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ مَعَانِيهَا ، وَأن يُوَفِّقَنَا لِلْعَمَلِ بمَا فِيهَا ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيْهِ .

❋ ❋ ❋

شَذَراتٌ في التَّعْريف بالشَّيخِ عَبْدِ اللهِ العُثْمانِي

عَرَّف بِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ الطَّيِّب القادِرِيُّ في كتابِه «**نشر المثاني**» فقال: هُوَ الشَّيْخُ العارِفُ المُنَوَّر، الصُّوفِيُّ المَفْتُوحُ عليه، المُؤَلِّفُ المُحقِّق: أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّزَّاق بْنِ عَبْدِ العَظِيمِ العُثْمَانِيُّ، وكفاه تألِيفُهُ المُسَمَّىٰ بـ«**الانْتِبَاهُ فِي صِدْقِ عُبُودِيَّةِ العَبْدِ إِلَىٰ مَوْلَاه**»، شرح فيه نظمه المُسَمَّىٰ «**بِدَايَة السُّلُوك إِلَىٰ بِسَاطِ مَالِكِ المُلُوك**»[1].

ثم نَقَلَ عَنِ الشَّيْخ عَبْدِ الرَّحْمَن الفَاسِيِّ قولَهُ في «**ابْتِهَاج القُلُوبِ**»[2]: والعثمانِيُّ نِسْبَة إلىٰ العثامنة، وهم بطون من مختار أحد القبائل الذين بحوز مكناسة الزيتون، منهم الشيخ ابن غازي رحمه الله.

قال القادريُّ: وُلِد صاحب الترجمة تقريباً حدود خمس وأربعين

(١) نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني (ج١/ص٢٢٢).

(٢) للشيخ عبد الرحمن الفاسي، واسمه الكامل: ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب. حققته حفيظة الدازي ضمن رسالة جامعية في التاريخ، مرقونة في خزانة كلية الآداب بالرباط، ٩١ ـ ١٩٩٢.

وتسعمائة (٩٤٥هـ) لأنه ذكر في «**سِلَاحِ أَهْلِ الإِيمَانِ**» أنه صحب الشيخ أبا المحاسن سنة خمس وألف (١٠٠٥هـ)، وذكر في شرح «**بِدَايَةِ السُّلُوك**» أنه كان يوم صَحِبَهُ ابْن نحو خمسين سنة. وكانَ يُعَلِّم الصِّبْيان بمَكْتَبِ سَيِّدِي دَرَّاس بْنِ إسْماعِيل بعدوة فاس الأندلس، وذَكَر في شَرْحِه أَنَّهُ وُلد بالبادية، وإنما نزل بفاس قبل تمام الألف بسِنين يسيرة.

وكانَ لَا يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ العُلُومِ، فلَمَّا أقْبَل على الشَّيْخ أَبِي المحاسِنِ الفاسِيِّ فتحَ اللهُ عليه، وصارَ يتَكَلَّمُ بِرقائِقَ وإشاراتٍ، وأَلَّفَ بقُرْبِ لِقَائه «**سِلَاحَ أَهْلِ الإِيمَانِ فِي مُحَارَبَةِ الشَّيْطانِ فِي الصَّلَاةِ وتِلَاوَةِ القُرْآنِ**»، وأَلَّفَ نَظْماً في السلوك قاسَ فيه السَّفَرَ المَعْنَوِيَّ على السَّفَرِ الحِسِّي[1]، وشَرَحَهُ بِشَرْحَيْن وَقَفْتُ على أحدِهما بخَطِّه.

وتوفي عصر يوم الاثنين خامس ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف (١٠٢٧هـ).

والحاصِلُ أنَّ كُتُبَهُ المذكورَةَ تَدُلُّ على ما لَهُ مِنْ عُلُوِّ الشَّأْن ورُسُوخِه في العِلْمِ والعِرْفَان، وَنَصُّهُ في شَرْحِه المَذْكُور: «وَالمِنَّةُ لِلَّهِ

(١) ويسمى بداية السلوك إلى بساط مالك الملوك، وقد يسَّر الله تعالى العنايةَ به ونشرته دار الضياء الكويتية.

حَيْثُ أَقَامَنَا فِي حِرْفَةٍ تَضَمَّنَتْ لَنَا بِشَارَةً مِنَ اللهِ، وَبِشَارَةً مِنْ رَسُولِهِ، أَمَّا الَّتِي مِنَ اللهِ فَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الدِّيوَانَ يَتَضَمَّنُ الدَّعْوَةَ إِلَىٰ اللهِ، وَأَمَّا الَّتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ فَقَوْلُهُ ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ كِتَابَ اللهِ وَعَلَّمَهُ**»[1].

وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا بِجَمْعِه حِفْظًا وَرَسْمًا، ووَرَّثْناه فِي المَصاحِفِ وَفِي صُدُورِ الرِّجالِ، وكتَبْتُ بِيَدِي ما يَزِيدُ علىٰ السَّبْعِينَ مُصْحَفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ، وحَفِظَهُ عَلَىٰ يَدِي جماعَةٌ من خَلْقِ اللهِ، ولَمْ أَزَلْ علىٰ حالَتِي مِنْ تَعْلِيم صِبْيَان المَكاتِبِ وصَبِيْان الطَّرِيقَة».

فهو مِنْ شُيُوخِ التَّرْبِيَةِ نفع الله به[2].

وَوصَفَهُ الشَّيْخُ أَبُو حامِد العربي الفاسي في كتابه «**مِرْآةُ المَحاسِن مِنْ أَخْبَارِ الشَّيْخ أَبِي المحاسِن**» بقَوْلِه: السَّيِّدُ الفَقِيهُ العَارِفُ أَبُو محمد عبد الله بن عبد الرزاق العثماني[3].

---

(١) البخاري (٥٠٢٧).

(٢) انتهىٰ النقل من كتاب نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني للشيخ محمد الطيب القادري الفاسي (ج١/ص٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(٣) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ص ٩٣) تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني. منشورات رابطة أبي المحاسن بن الجد.

وترجم له الشيخ الكتاني في «**سلوة الأنفاس**» فقال: هُوَ العارِف، العالِم، الشيخ، العلامة، الفَقِيهُ الصُّوفِيُّ الأنْوَرُ النَّزِيهُ، المُؤَلِّفُ المُحَقِّقُ، العَارِفُ المُدَقِّقُ[١].

قلت: والشيخ أبو المحاسن (ت: ١٠١٣هـ) الذي فُتِحَ للشَّيْخِ العثماني على يديه كان مِنْ كِبَارِ أَوْلِياءِ اللهِ تَعَالَى، وصنفت في مناقبه كتب مستقلة، منها «**مرآة المَحاسن**» لابنه العلامة أبي حامد الفاسي الذي وصف والِدَهُ قائلا: «كانَ حَسَنَ الأخْلَاق، كَرِيمَ النَّفْسِ، دائِمَ البِشْر، مُمْتِعَ المُجالسة، طيِّبَ المُؤانَسَة، وَقُورًا مع ذلِك مَهِيبًا، حَاضًّا على مكارم الأخلاق، موضِّحًا تأكُّدَها على أُمَّةٍ بُعِثَ رَسُولُهَا ﷺ لتتميمها، يُكْرِمُ كريمَ القَوْم، ويَقُولُ: «لَا يُكْبِرُ النَّاسَ إلا كَبِير، ولَا يُصَغِّرُهُمْ إلا صَغِير»[٢].

وقال: وكانَ مُرَاعِيًا للسُّنَّة في جميعِ أحْوَالِه، مُحَافِظًا عليها، بَانِيًا أمْرَهُ كُلَّهُ على ما يَقْتَضِيهِ العِلْمُ، غَوَّاصًا على أسْرَارِ الشَّرِيعَة، نَظَّارًا إلى مَقاصِدِهَا[٣].

---

(١) سلوة الأنفاس (ج٢/ص٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن (ص ٩٨) تحقيق الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني. منشورات رابطة أبي المحاسن بن الجد.

(٣) السابق (ص ٩٨).

وقال: وكانتِ الرَّحْمَةُ لِعِبادِ اللهِ وَصْفًا غالِبًا عليه، يُسَرُّ بما يَنْفَعُهُمْ، ويَأْلَمُ بما يَضُرُّهُم، لا يَتَشَفَّى مِنْ أحَدٍ كائِنًا مَنْ كَانَ، ولَوْ بلَغَ مِنْ إذايَتِه ما بَلَغ، وإِنْ عَرَضَ لِمَنْ يُؤْذِيهِ أَمْرٌ واحْتَاجَ إِلَيْهِ قَضَى غَرَضَهُ وأعَانه في حاجَتِه بالمُسْتَطاع، حَتَّى يَظُنّ راؤُوه أنه مِمَّنْ سَبَقَتْ مَحَبَّتُه وتأَكَّدَتْ حُقُوقُه[1].

وقال: وَكانَ له في الوَرَع قَدَمُ صِدْق، معَ تَأْيِيدٍ بالعِلْمِ وإمْدَادٍ بالنُّور، فكانَ لا يَسْتَعْمِلُ في دارِهِ إلَّا ما عَلِمَ أَصْلَ حِلِّيَّتِه، وكانت له مُسْتغلات مِنَ الحَلالِ المَحْضِ الخَالِص يَصْرِفُها فيما يحتاج إلَيْه، ولا يَصْرِفُ في ذلك ما فيه أدْنَى شَيْءٍ مِنَ الشُّبْهَة، ولا يَسْمَحُ لعِياله في شيء من ذلك[2].

وقال: كان رضي الله عنه كثيرَ قيامِ اللَّيْلِ والتَّهَجُّدِ بالقرآن، حسَنَ النَّغمةِ والتِّلاوة، تستوقِفُ قراءَتُه السَّامِع، وتتمكن في القلوب والمسامع[3].

رَحِمَهُ اللّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَعَنَّا بِه، آمِين.

❊ ❊ ❊

(١) السابق (ص ١٠١).

(٢) السابق (ص ١٠٢).

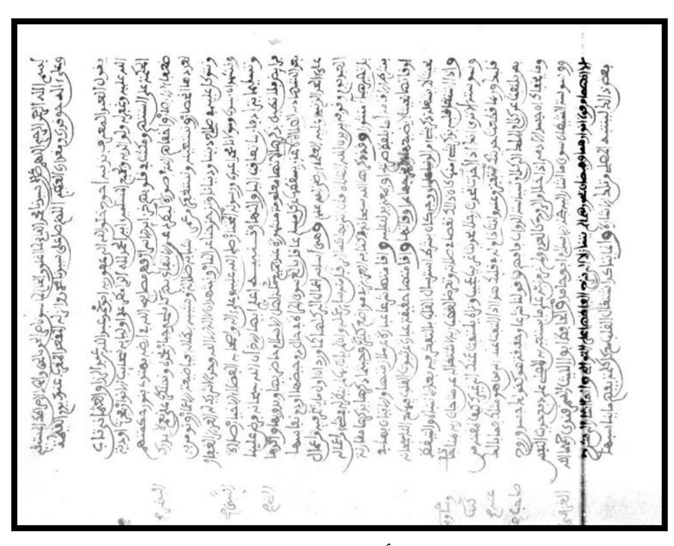
(٣) السابق (ص ١١٢).

النسخ المعتمدة في العناية بكتاب سلاح أهل الإيمان

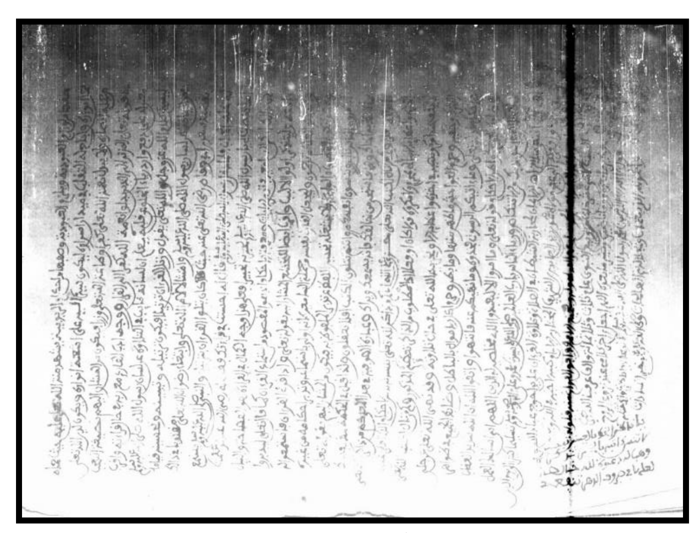
❋ النسخة الأولى من مكتبة تشيت بموريتانيا، تحمل رقم ٣٥٦. ناسخها محمد بن زين، تاريخ نسخها ١٣٣هـ. عدد ورقاتها ٨.

❋ النسخة الثانية من المكتبة الوطنية بتونس، تحمل رقم ١٢٩٧. تقع في ٨ ورقات.

وفيما يلي نماذج منهما:



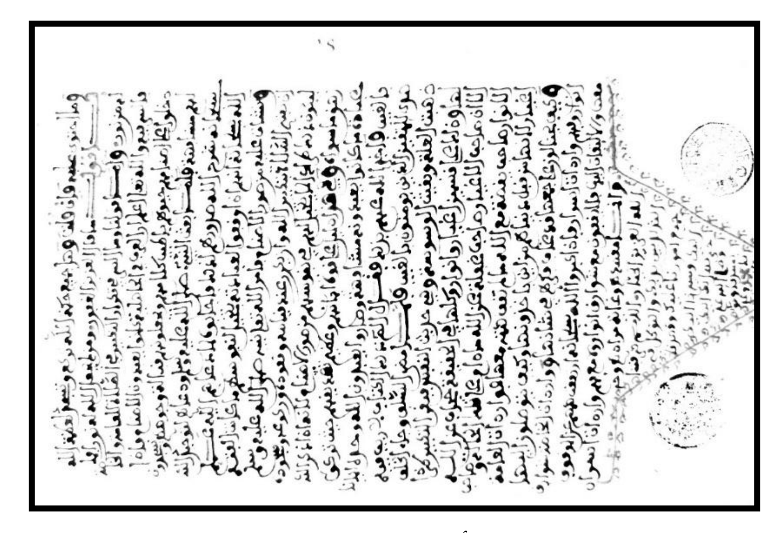
الصفحة الأولى من نسخة تشيت



الصفحة الأخيرة من نسخة تشيت



الصفحة الأولى من النسخة التونسية



الصفحة الأخيرة من النسخة التونسية

سِلاحُ أهلِ الإيمانِ

لِمُحارَبَةِ الشَّيطانِ فِي الصَّلاةِ وتِلاوَةِ القُرآن

تأليف الشَّيخ العلَّامة الفقيه

عبد الله بن عبد الرَّزَّاق العُثمانيّ المكناسيّ

(٩٤٥-١٠٢٧هـ)

بعِناية

نزار حمّادي



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا

يَقُولُ العَبْدُ المُعْتَرِفُ بِذَنْبِه، أَحْوَجُ خَلْقِ اللهِ إِلَى عَفْوِ ربِّه،

أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ العُثْمَانِيُّ

تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْه، وَلِجَمِيعِ المُسْلِمِين

الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمْطَرَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ سَحَائِبَ الأَنْوَارِ، فَجَرَتْ أَوْدِيَةُ الحِكْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَمَكَثَتْ فِي قُلُوبِهِمْ خَزَائِنُ الأَسْرَارِ، فَهُمْ مَصَابِيحُ اللهِ فِي أَرْضِهِ يَهْتَدِي بِنُورِ حِكْمَتِهِمْ ضُعَفَاءُ الأَبْصَارِ، وَأَخْفَاهُمُ اللهُ في صُورَةِ البَشَرِ لِيَطْرُدَ عَنِ الانْتِفَاعِ بِهِمْ كُلَّ مُلْحِدٍ جَبَّارٍ.

نَحْمَدُهُ وَنَشْكُرُهُ عَلَى نِعَمٍ لَا يُدْرِكُ لِعَدَدِهَا انْحِصَار، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ عُمُرٍ شَبَابُهُ ضَلَالَةٌ وَشَيْبُهُ بَطَالَةٌ فَيَا ضَيْعَةَ الأَعْمَارِ، وَنُؤْمِنُ بِهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ فِي صَلَاحِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا وَتَزَحْزُحِنَا عَنِ النَّارِ.

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ العَزِيزُ الغَفَّارُ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ المُخْتَارُ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الفُضَلَاءِ الأَخْيَار، صَلَاةً وَتَسْلِيمًا يَتَرَادَفَانِ مَا تَعَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَار.

تَنْبِيهٌ

اعْلَمْ أَيُّهَا الأَخُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ فَرَضَ عَلَيْنَا فَرَائِضَ فَلَا نُطِيلُ بِذِكْرِهَا لِأَنَّهَا مَعْلُومَةٌ مَشْهُورَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَهْلِ مِلَّةِ الإِسْلَامِ، حَضَرِيِّهَا وَبَدَوِيِّهَا، وَآكَدُهَا بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ الصَّلَاةُ الَّتِي لَا عُذْرَ يُسْقِطُهَا عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ بَالِغٍ، سِوَىٰ المَرْأَةِ فِي حَالِ دَمِ حَيْضِهَا أَوْ دَمِ نِفَاسِهَا عَلَىٰ الحَدِّ الَّذِي نَبَّهَتْ عَلَيْهِ العُلَمَاءُ رضي الله عنهم.

وَهِيَ أَسَاسُ أَعْمَالِ البِرِّ كُلِّهَا، كَمَا وَرَدَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ أَعْمَالِ العَبْدِ يَوْمَ وُقُوفِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ أَتَىٰ بِهَا كَمَا أُمِرَ قُبِلَ مِنْهُ سَائِرُ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا لَمْ يُنْظَرْ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِ**»[1]، بَلْ تَصِيرُ هَبَاءً مَنْثُورًا.

وَقَدْ ذَكَرَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَحَيْثُمَا

(١) الموطأ (٤٣٠) بلاغا عن يحيىٰ بن سعيد. قال **ابنُ عبد البرّ**: معنَىٰ القَبُول ـ والله أعلمُ ـ أن توجَدَ تامَّةً علىٰ ما يلزمُهُ منها لزومَ فَرْضٍ، فإن وُجدتْ كذلك قُبِلَتْ، ونُظِرَ في سَائِرِ عَمَلِه. (التمهيد، ج٢٤/ص٨٢).

ذَكَرَهَا يَذْكُرُهَا مُقَارِنَةً بِشَرْطِ الإِقَامَةِ، إِمَّا بِلَفْظٍ صَرِيحٍ، أَوْ بِمَعْنًى يَدُلُّ عَلَيْهِ.

وَإِقَامَتُهَا شَرْعًا: عِبَارَةٌ عَنْ مُلَازَمَتِهَا وَالإِتْيَانِ بِهَا فِي أَوْقَاتِهَا، بِحَيْثُ لَا يُضَيِّعُهَا، وَلَا يُخْرِجُهَا عَنْ أَوْقَاتِهَا.

وَإِقَامَتُهَا حَقِيقَةً: عِبَارَةٌ عَنْ ثُبُوتِ القَلْبِ فِيهَا مَعَ اللهِ سُبْحَانَهُ، بِحَيْثُ لَا يَشْغَلُهُ ذِكْرُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى أَيِّ وَجْهٍ كَانَ بِشَرْطِ اسْتِرْسَالِ القَلْبِ بِالتَّفَكُّرِ فِيهِ بَعْدَ الانْتِبَاهِ وَالتَّيَقُّظِ، وَإِذَا اشْتَغَلَ قَلْبُهُ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْهَا كَانَ ذَلِكَ نَقْصاً فِي صَلَاتِهِ، وَتَعَرُّضًا لِغَضَبِ رَبِّهِ لِاشْتِغَالِهِ عَنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ بِمُنَاجَاةِ وَسَاوِسِهِ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ تُحَدِّثُ رَجُلًا بِحَدِيثٍ غَرِيبٍ عَجِيب، وَتَرَاهُ يَلْتَفِتُ عَنْكَ إِلَى غَيْرِكَ، كَيْفَ تَمْقُتُهُ مِنْ قَلْبِكَ؟! وَرُبَّمَا قَطَعْتَ حَدِيثَكَ عَنْهُ، فَتَفْتَرِقُ عَنْهُ وَأَنْتَ ذَامٌّ لَهُ فِي قَلْبِكَ.

هَذَا إِذَا الْتَفَتَ عَنْكَ إِلَى مَنْ هُوَ مِثْلُكَ، فَمَا بَالُكَ بِمَنْ يَلْتَفِتُ عَنْ كَلَامِ المَلِكِ إِلَى كَلَامِ صَاحِبِ سِيَاسَةِ الدَّوَابِّ؟! فَافْهَمْ.

وَقَوْلُنَا: «شَرْعًا، وَحَقِيقَةً» هُوَ كَقَوْلِكَ: جَسَدٌ وَرُوحٌ، وَمَا يَخْفَاكَ أَنَّ جَسَدَ الآدَمِيِّ إِذَ خَلَا مِنَ الرُّوحِ كَالعَدَمِ.

وَلَمْ نَرَ مَنْ نَبَّهَ عَلَىٰ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ المُصَلِّي عَلَىٰ دَفْعِ حَدِيثِ النَّفْسِ وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، سِوَىٰ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ حُجَّةُ الإِسْلَامِ «أَبُو حَامِدٍ الغَزَالِيُّ»، وَالحَافِظُ «أَبُو اللَّيْثِ السَّمَرْقَنْدِيُّ» رَحِمَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ، إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ قُوَّةِ أَنْوَارِهِمَا وَفَيَضَانِ بُحُورِهِمَا لَمْ يَتَنَزَّلَا إِلَىٰ شَرْحِ أَلْفَاظِهَا عَلَىٰ التَّوَالِي، وَإِنَّمَا أَشَارَا إِلَىٰ شَرْحِ بَعْضِ ذَلِكَ لِيَنْتَبِهَ المُصَلِّي مِنْ تِلْكَ الإِشَارَةِ.

وَإِنَّمَا يَتَأَكَّدُ اشْتِغَالُ القَلْبِ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ المَعْنَىٰ فِي حَقِّنَا لِأَنَّا غَرْقَىٰ فِي بَحْرِ حَدِيثِ النَّفْسِ وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، فَنَحْنُ بِمَثَابَةِ المَرِيضِ المُضْطَرِّ إِلَىٰ مُعَالَجَةِ بَدَنِهِ، وَالشَّيْخِ الهَرِمِ الفَانِي الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْقُلَ رِجْلَهُ خَلْفَ الأُخْرَىٰ إِلَّا بِالاعْتِمَادِ عَلَىٰ العَنَزَةِ مَخَافَةَ السُّقُوطِ.

وَيَجِبُ عَلَىٰ العَلِيلِ أَنْ يَحْتَالَ فِي مُعَالَجَةِ دِينِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَالُ فِي مُعَالَجَةِ بَدَنِهِ، فَعَسَىٰ الكَرِيمُ المَنَّانُ أَنْ يَنْقُلَ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ إِلَىٰ الاشْتِغَالِ بِالفَهْمِ عَنْهُ، وَمِنَ الاشْتِغَالِ بِالفَهْمِ إِلَىٰ الغَيْبَةِ وَالفَنَاءِ عَنِ الجَمِيعِ فِي شُهُودِ مُجْرِيهَا وَمُنْشِيهَا وَمُيَسِّرِهَا وَمُهْدِيهَا، فَيَغِيبُ عَنْ شُهُودِ العَمَلِ مِنَ النَّفْسِ فِي شُهُودِ التَّوْفِيقِ مِنَ اللهِ لِلْعَمَلِ، فَيَتَرَقَّىٰ مِنْ أَدْنَىٰ الحَالَتَيْنِ لِأَعْلَاهُمَا، وَمَا ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ.

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الوَسْوَاسُ مَلَكَ قَلْبِي ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ مُدَافَعَتَهُ ، حَتَّىٰ جَمَعَنِي رَبِّي سَنَةَ خَمْسٍ وَأَلْفٍ (ت١٠٠٥هـ) بِشَيْخِ الحَقِيقَةِ ، وَمَنَارِ الطَّرِيقَةِ ، جُنَيْدِيِّ عَصْرِهِ ، وَجَيْلَانِيِّ دَهْرِهِ ، أَبِي المَعَالِي سَيِّدِي يُوسُفَ بْنِ عُمَرَ الشَّهِيرِ بِالفَاسِي ، مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ نُورًا ، وَقَبْرَهُ سُرُورًا ، خَابَ وَاللهِ جَاحِدُهُ ، وخَسِرَ واللهِ مُلْحِدُهُ.

وَكَانَ إِتْيَانِي لَهُ غَيْرَ شَاكٍ لَهُ بِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَتَيْتُهُ سَائِلًا عَنْ قَوْلِ صَاحِبِ «دَلَائِلِ الخَيْرَاتِ»: «كُنْتَ حَيْثُ كُنْتَ» ، فَقَالَ لِي رضي الله عنه: فِي هَذَا الكِتَابِ أَلْفَاظٌ لَا تُحْمَلُ عَلَىٰ ظَاهِرِهَا مِنْ مَعْرُوفِ اللُّغَةِ وَبِسَاطِ التَّوْحِيدِ ، وَإِنَّمَا سُمِحَ لَهُ فِي التَّعْبِيرِ بِهَا لِمَا عُلِمَ مِنْ صِدْقِ حُبِّهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، مِنْهَا هَذَا ، وَمِنْهَا: «عَدَدَ حِلْمِهِ ، وَعَدَدَ عِلْمِهِ».

ثُمَّ قَالَ لِي: أَيَّ شَيْءٍ فِي كِتَابِكَ هَذَا؟ فَقُلْتُ لَهُ: فِي أَوَّلِهِ «الحِزْبُ الكَبِيرُ» لِـ«أَبِي الحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ» رضي الله عنه ، وَفِي وَسَطِهِ «دَلَائِلُ الخَيْرَاتِ» ، وَفِي آخِرِهِ: «الدُّعَاءُ بِأَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ» لِلسَّيِّدِ «ابْنِ عَبَّادٍ» رحمه الله.

فَقَالَ لِي: افْتَحْ عَنْ أَوَّلِ الأَسْمَاءِ ، فَفَتَحْتُ ، فَأَخَذَ الكِتَابَ مِنْ يَدِي وَقَالَ لِي: انْظُرْ فِي مَعْنَىٰ هَذَيْنِ الاسْمَيْنِ ، مَدْلُولُ الرَّحْمَنِ كَذَا ، وَمَدْلُولُ الرَّحِيمِ كَذَا ، ثُمَّ دَفَعَ إِلَيَّ الكِتَابَ ، وَالْتَفَتَ عَنِّي ، فَفَتَحَ اللهُ

قَلْبِي، وَقُمْتُ أَتَأَمَّلُ فِيمَا أَشَارَ إِلَيْهِ، فَرَزَقَنِي اللهُ الفَهْمَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وَصِرْتُ أَتَأَمَّلُ ذَلِكَ فِي صَلاَتِي، فَكَانَ لِي فِيهِ نِعْمَ العَوْنُ عَلَىٰ دَفْعِ وَطَرْدِ شَوَاغِلِ القَلْبِ بِحَدِيثِ النَّفْسِ، وَذَلِكَ بِبَرَكَةِ مُلاقَاةِ هَذَا الشَّيْخِ الرَّبَّانِيِّ، وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَلِكَ أَعْرِفُ ـ مِمَّا تَرَىٰ ـ وَلَوْ كَلِمَةً وَاحِدَةً، وَلَكِنْ كَمَا قِيلَ: هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَىٰ جَلِيسُهُمْ.

وَإِذَا كَانَ عِنْدَ ذِكْرِ الصَّالِحِينَ تَتَنَزَّلُ الرَّحْمَةُ، فَضَمَانُهَا لِجَلِيسِهِمْ عَلَىٰ بِسَاطِ الإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ أَوْلَىٰ، فَأَرَدْتُ أَنْ أُنَبِّهَ عَلَىٰ مَا فَتَحَ اللهُ عَلَيَّ، رَجَاءَ أَنْ يَنْفَعَ اللهُ بِهِ كُلَّ مَنْ قَرَأَهُ أَوْ قُرِئَ عَلَيْهِ، وَيَكُونَ سَبَبًا لِإِلْهَامِهِ، وَمُعِينًا عَلَىٰ حَرْبِ عَدُوِّهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

وَسَمَّيْتُهُ: «**سِلَاح أَهْلِ الإِيمَانِ لِمُحَارَبَةِ الشَّيْطَانِ فِي الصَّلَاةِ وَتِلَاوَةِ القُرْآن**».

فَأَقُولُ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ: إِنَّ العَبْدَ إِذَا سَمِعَ نِدَاءَ الصَّلَاةِ، فَإِذَا قَالَ الْمُؤَذِّنُ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» عَلِمَ فِي ضِمْنِ قَوْلِهِ «**اللهُ أَكْبَرُ**»: دَاعِي اللهِ أَكْبَرُ فَأَجِيبُوهُ، فَلْيَقُلْ السَّامِعُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَيَتْرُكْ عِنْدَ ذَلِكَ كُلَّ شُغْلٍ.

وَهَذَا المَعْنَىٰ هُوَ الَّذِي فَهِمَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ رضي الله عنهم كَمَا ذَكَرَ السَّيِّدُ ابْنُ عَبَّادٍ رضي الله عنه أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ يَكُونُ يَحْتَرِفُ في صَنْعَتِه، فَإِذَا قَالَ

المُؤَذِّنُ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» رُبَّمَا يَكُونُ الرَّجُلُ قَدْ حَمَلَ المِطْرَقَةَ فِي يَدِهِ لِيَضْرِبَ بِهَا فِي صَنْعَتِه فَيَرْمِيهَا مِنْ يَدِه وَلَا يَضْرِبُ، وَيَقُومُ مُبادِرًا إِلَىٰ المَسْجِدِ.

ووَجْهُ تَكرارِ التَّكبيرِ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ أَنَّه تأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ؛ لِأَنَّكَ إِذَا قُلْتَ لرَجُلٍ: «قُمْ! قُمْ!» دَلَّهُ ذَلِكَ عَلَىٰ المُبَادَرَةِ لِامْتِثَالِ الأَمْرِ.

فإذَا قالَ: «**أَشْهَدُ أنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» قَالَ السَّامِعُ: نَعَمْ! أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إِلَّا اللهُ، يَمْنَعُنِي مِنْ عُقُوبَتِهِ إِنْ أَجَبْتُ دَاعِيَهُ.

فإذَا قالَ: «**أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**» قَالَ السَّامِعُ: نَعَمْ! أَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صَادِقٌ مُصَدَّقٌ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ.

فَإِذَا قَالَ المُؤَذِّنُ: «**حَيَّ عَلَىٰ الصَّلاةِ، حَيَّ عَلَىٰ الفَلَاحِ**» فَقَدْ بَيَّنَ مَا دَعَا إِلَيْهِ، فَلْيَقُلِ السَّامِعُ عِنْدَ ذَلِكَ: «**لَا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ**»، أَيْ: لَا حَوْلَ لِي عَنْ عَجْزِ نَفْسِي عَنْ طَاعَةِ اللهِ إِلَّا بِإِرَادَةِ اللهِ، وَلَا قُوَّةَ لِي عَلَىٰ القِيَامِ بِوَاجِبِ حَقِّ اللهِ إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللهِ.

ومَعْنَىٰ «**حَيَّ عَلَىٰ الصَّلَاةِ**»: هَلُمُّوا إِلَىٰ أَدَاءِ أَمَانَةِ اللهِ.

وَمَعْنَىٰ «**حَيَّ عَلَىٰ الفَلَاحِ**»: هَلُمُّوا إِلَىٰ الفَوْزِ بِالنَّعِيمِ المُقِيمِ.

وَوَجْهُ تَكْرَارِ التَّكْبِيرِ ثَانِيًا أَنَّهُ تَنْبِيهٌ لِمَنْ سَهَىٰ عَنِ الأَمْرِ الأَوَّلِ، وَاللهُ تَعالَىٰ أَعْلَمُ.

ثُمَّ خَتَمَ بِقَوْلِه: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» إِقْرَارًا لِلَّهِ بالوَحْدَانيَّة ليَزْدادَ السَّامِعُ خَشْيَةً مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ.

فَإِذَا ٱنْتَهىٰ الأَذَانُ عَلِمَ العَبْدُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَهُ بِأَمْرٍ يَفْعَلُهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وَهُوَ الوُقُوفُ بَيْنَ يدَيْ مَوْلَاهُ جَلَّ وَعَزَّ لِيُنَاجِيَهُ بِكَلَامِهِ سُبْحَانَهُ، وَلِيَنَالَ بِتِلْكَ المُنَاجَاةِ رِضَىٰ مَوْلَاهُ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَأَهَّبَ لِذَلِكَ بِطَهَارَةِ بَدَنِه وَثِيَابِهِ وَإِسْبَاغِ وُضُوئِهِ كَمَا بَيَّنَ لَنَا الشَّارِعُ ﷺ ذَلِكَ.

ثُمَّ يَأْتِي إِلَىٰ مُصَلَّاهُ بِقَلْبٍ خَاضِعٍ ذَلِيلٍ، مُلْتَمِسًا عَفْوَ مَوْلَاهُ مِنْ كُلِّ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ، فَإِذَا وَقَفَ فِي مُصَلَّاهُ نَوَىٰ أَنْ يُؤَدِّيَ وَاجِبَ حَقِّ اللهِ عَلَيْه، فَلْيَجْتَهِدْ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا يُقْبَلُ مِنْهُ وَلَا يُرَدُّ عَلَيْه، فَلْيَسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ، وَيَنْوِي أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِالتَّوَجُّهِ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ شَرَّفَهَا اللهُ، وَأَنَّ العِبَادَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

فَإِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ بَسطَهُمَا، وَنَوَىٰ بِبَسْطِهِمَا طَرْحَ الدُّنْيا مِنْ يَدِه، وَيَجِبُ عَلَيْهِ كَمَا رَمَىٰ بِجَمِيعِ شَوَاغِلِهَا مِنْ يَدِهِ أَنْ يَرْمِيَ بِجَمِيعِ شَوَاغِلِهَا مِنْ قَلْبِهِ لِيَكُونَ مُصَلِّيًا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَابُدَّ مِنْ هَذَا عِنْدَ إِحْرَامِهِ، وَإِلَّا

فَلَا صَلَاةَ لَهُ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ يَجْتَهِدُ فِي مُدَافَعَةِ وَسْوَسَتِهِ وَحَدِيثِ نَفْسِهِ بِمَا نَذْكُرُ لَهُ غَايَةَ الاجْتِهَادِ.

فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُكَبِّرَ نَظَرَ إِلَىٰ قَلْبِهِ، فَإِنْ كَانَ قَلْبُهُ فَارِغًا مِنَ الشَّوَاغِلِ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ[1]: «**عَظَمَةُ اللهِ أَكْبَرُ**» لِيُثْمِرَ لَهُ ذَلِكَ التَّوَاضُعَ وَالتَّذَلُّلَ بَيْنَ يَدَيْ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، فَيُنْتِجُ لَهُ ذَلِكَ التَّوَاضُعُ ذِلَّةَ النَّفْسِ وَرِقَّةَ القَلْبِ، فَيَسْتَجْلِبُ بِذَلِكَ البُكَاءَ وَالخُضُوعَ، وَهُمَا بِسَاطُ الرَّحْمَةِ وَمَظِنَّةُ قَبُولِ العَمَلِ؛ لِقَوْلِ السَّيِّدِ ٱبْنِ عَطَاءِ اللهِ رضي الله عنه: «**مَنْ وَجَدَ ثَمَرَةَ عَمَلِهِ عَاجِلًا، فَذَلِكَ دَلِيلُ القَبُولِ آجِلًا**»[2].

وَيَنْوِي مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**فَضْلُ اللهِ أَكْبَرُ**» أَيْ: فَضْلُهُ عَلَيَّ حَيْثُ جَعَلَنِي مِنْ أَهْلِ دِينِ الإِسْلَامِ أَكْبَرُ مِنْ عِبَادَتِي لَهُ، وَيُنْتِجُ لَهُ هَذَا النَّظَرُ شُهُودَ

---

(١) قال القاضي عِيَاضٌ رضي الله عنه: وَحِكْمَةُ تَقْدِيم قَوْلِ «اللهُ أَكْبَرُ» أمامَ فِعْلِ الصَّلاة التنبيهُ للمُصَلِّي علىٰ معْنَىٰ هذه الكَلِمَة الَّتِي معناهَا أَنَّهُ تَعالىٰ موصوفٌ بالجلَالِ وكِبَرِ الشَّأْن، وأنَّ كُلَّ شَيْءٍ دُونَ جلالِه وسُلْطَانِه حَقِيرٌ، وأنَّه جَلَّ وتقَدَّسَ عَنْ شَبَهِ المَخْلُوقِين والفَانِين، وليُشْغِل المُصَلِّي خاطِرَهُ بمُقْتَضَىٰ هذه اللَّفْظَة، ويَسْتَحْقِر أَنْ يَذْكُرَ معَهُ غَيْرَه، أو يُحَدِّث نَفْسَه بسواه جلَّ اسْمُهُ، وأنَّ مَنِ انْتَصب لعبادته ومَثُلَ بيْنَ يَدَيْهِ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَشْتَغِلُ بهِ. (التنبيهات المستنبطة، ج١/١٢٥ ـ ١٢٦).

(٢) الحكم العطائية (ص٥٥) الحكمة رقم: ٧١. دار الإمام ابن عَرَفة.

المِنَّةِ، فَتَكُونُ عِبَادَتُهُ عَلَىٰ وَجْهِ المَحَبَّةِ فِي اللهِ وَالفَرَحِ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ.

وَإِنْ كَانَ قَلْبُهُ مُتَعَلِّقًا بِشَيْءٍ فَلَا يَخْلُوُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَبْضًا أَوْ بَسْطًا، وَذَلِكَ القَبْضُ أَوِ البَسْطُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ، أَوْ مِنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ:

* فَإِنْ كَانَ قَبْضًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**فَرَجُ اللهِ أَكْبَرُ**».

* وإنْ كان بسْطًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**فَضْلُ اللهِ أَكْبَرُ**».

* وَإِنْ كَانَ قَبْضًا مِنْ أَمْرِ أُخْرَاهُ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**عَفْوُ اللهِ أَكْبَرُ**».

* وَإِنْ كَانَ بَسْطًا مِنْ أَمْرِ أُخْرَاهُ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**مَا عِنْدَ اللهِ أَكْبَرُ**».

وَلَا شَكَّ أَنَّهُ إِذَا ذَكَّرَ قَلْبَهُ ذَلِكَ زَالَ عَنْهُ مَا أَهَمَّهُ، وَٱزْدَادَ فَرَحًا باللهِ فِيمَا أَسَرَّهُ.

ثُمَّ يُقَرِّرُ نِيَّةَ أَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ، وَيُكَبِّرُ بِتَعْظِيمِ الاشْتِغَالِ بِحَقِّ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ مَا سِوَاهُ، فَيُبَادِرُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَىٰ حَمْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ قَلْبًا وَنُطْقًا وَحُبًّا وَشَوْقًا، فَيَكُونُ إِذْ ذَاكَ بِمَثَابَةِ مَنْ حَمِدَ اللهَ عَلَىٰ شَرْبَةِ مَاءٍ بَارِدٍ فِي وَقْتِ حَرٍّ.

وَشُهُودُ مِنَّةِ التَّوْفِيقِ وَالهِدَايَة، وَتَعْجِيلُ وَصْفِ الفَضْلِ فِي تَصْرِيفِ المَشِيئَة، هُوَ السِّرُّ فِي ٱبْتِدَاءِ المُصَلِّي بِالحَمْدِ، وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَم.

وَأَمَّا تَكْرَارُهُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَلِأَنَّ المُصَلِّيَ يَتَقَلَّبُ فِي مَرْضَاةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱفْتِتَاحِ كُلِّ رَكْعَةٍ أَنْ يَحْمَد اللهَ سُبْحَانَهُ وَيُثْنِيَ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ؛ لِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] أَيْ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ مِنَنِي لَأَزِيدَنَّكُمْ مَحَبَّتِي، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ نِعْمَتِي لَأَطْرُدَنَّكُمْ مِنْ حَضْرَتِي.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ١] يَعْلَمُ أَنَّهُ حَمِدَ اللهَ وَحْدَهُ؛ إِذْ لَا يَسْتَحِقُّ الحَمْدَ غَيْرُهُ. وَمَعْنَىٰ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ١]: إِثْبَاتُ الثَّنَاءِ مِنْهُ عَلَيْهِ، وَدَعْوَةٌ لِلْخَلْقِ إِلَىٰ الإِقْرَارِ بِهِ، وَأَنْ يُثْنُوا بِهِ عَلَيْهِ بِمَا لَهُ مِنْ صِفَاتِ الجَلَالِ وَالجَمَالِ، وَبَرَاءَتِهِ مِنْ مُطْلَقِ النَّقْصِ، وَوَصْفِهِ بِمُطْلَقِ الكَمَالِ.

وَإِذَا قَالَ: ﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١] ٱزْدَادَ بِذَلِكَ تَعَرُّفًا بِاللهِ سُبْحَانَهُ؛ لِأَنَّ مَعْنَىٰ الرُّبُوبِيَّةِ فِي بِسَاطِ التَّوْحِيدِ تَتَضَمَّنُ إِيجَادَ الخَلْقِ وَإِمْدَادَهُ، وَقَدْ ثَبَتَ لَهُ وَصْفُ الإِيجَادِ وَالإِمْدَادِ، فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ.

ثُمَّ كَأَنَّ نَفْسَ المُصَلِّي قَالَتْ: كَيْفَ هُوَ رَبُّ العَالَمِينَ؟ فَبَيَّنَ لَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢] أَي المُنْعِمِ عَلَيْهِمْ؛ إِذْ مَدْلُولُ

الرَّحْمَنِ: مُجْرِي نِعَمِهِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ الخَلْقِ أَجْمَعِينَ، وَمَدْلُولُ الرَّحِيمِ مُجْرِي نِعَمِهِ فِي الآخِرَةِ عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَ المُرْسَلِينَ.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الرَّحْمَنُ: مُجْرِي نِعَمِهِ فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالعِصْيَانِ، وَالرَّحِيمُ مُجْرِي نِعَمِهِ فِي الآخِرَةِ عَلَىٰ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِيمَانِ.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ: الرَّحْمَنُ: مُجْرِي نِعَمِهِ في الدُّنْيَا عَلَىٰ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمَنْ كَفَر، وَالرَّحِيمُ مُجْرِي نِعَمِهِ فِي الآخِرَةِ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَاجْتَهَدَ فِي طَاعَةِ اللهِ وَاحْتَسَبَ وَصَبَر.

وَمِثْلُ هَذَا يَطُولُ، وَالغَرَضُ الاخْتِصَارُ.

ثُمَّ زَادَنَا تَعَرُّفًا بِـ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٣] وَالسِّرُّ فِي ذَلِكَ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ نَفْيُ الشَّرِيكِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ، وَتَذْكِيرُ النَّفْسِ بِيَوْمِ الحِسَابِ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا ذُكِرَ لَهَا يَوْمُ الحِسَابِ تَذِلُّ وَتَنْكَسِرُ شَرَاهِيَتُهَا، أَمَا تَرَاهَا عِنْدَ ذَلِكَ أَقَرَّتْ لِلَّهِ بِالعِبَادَةِ فَقَالَتْ: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٤] وَنَظَرَتْ إِلَىٰ عَجْزِهَا فَقَالَتْ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤] أَيْ: لَكَ نَعْبُدُ، وَبِكَ نَسْتَعِينُ.

وَمِمَّا يَتَأَكَّدُ فِي حَقِّ المُصَلِّي أَنْ يَسْتَحْضِرَ نِيَّتَهُ عِنْدَ نُطْقِهِ بِهَاتَيْنِ

الآيَتَيْنِ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ؛ رَجَاءَ أَنْ تَكُونَ حُجَّتَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، يَحْتَجُّ لَهُ بِهَا إِذَا عَزَفَتْ نَفْسُهُ وَلَهَىٰ قَلْبُهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِ دُنْيَاهُ، فَيَقُولُ الحَقُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ أَخْلَصَ العِبَادَةَ لِي، وَطَلَبَ مِنِّي الاسْتِعَانَةَ عَلَيْهَا. وَإِذَا نَطَقَ بِهَا بِغَيْرِ حُضُورٍ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِيهَا حُجَّةٌ.

ثُمَّ طَلَبَتْ مِنْهُ البَقَاءَ عَلَىٰ عِبَادَتِهِ، وَالاسْتِعَانَةَ عَلَيْهَا حَتَّىٰ تَلْقَاهُ، فَقَالَتْ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥] وَمَعْنَىٰ الهِدَايَةِ هَهُنَا: الثَّبَاتُ عَلَىٰ مَا هُوَ حَاصِلٌ وَهُوَ الإِسْلَامُ وَالإِيمَانُ، وَطَلَبُ مَا لَيْسَ بِحَاصِلٍ وَهُوَ التَّرَقِّي فِي مَقَامَاتِ الإِحْسَانِ؛ لِأَنَّ الإِسْلَامَ تَكَالِيفُ بَدَنِيَّةٌ، وَالإِيمَانَ تَكَالِيفُ قَلْبِيَّةٌ، وَالإِحْسَانَ مَعَارِفُ وَهْبِيَّةٌ، وَالمَعَارِفُ لَا نِهَايَةَ لَهَا، لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ، فَمَنْ هُوَ فِي مَقَامِ العُمُومِ يَطْلُبُ مَقَامَ الخُصُوصِ، وَمَنْ هُوَ فِي مَقَامِ الخُصُوصِ يَطْلُبُ مَقَامَ الصَّالِحِينَ، وَمَنْ هُوَ فِي مَقَامِ الصَّالِحِينَ يَطْلُبُ مَقَامَ الشُّهَدَاءِ، وَمَنْ هُوَ فِي مَقَامِ الشُّهَدَاءِ يَطْلُبُ مَقَامَ الصِّدِّيقِينَ، وَمَنْ هُوَ فِي مَقَامِ الصِّدِّيقِينَ يَطْلُبُ مَقَامَ العَارِفِينَ، ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤].

ثُمَّ كَأَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ كُلِّ وَهْمٍ، فَكَأَنَّهُ قَالَ لَهَا: وَمَا هُوَ عِنْدَكِ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ؟ فَقَالَتْ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أَيْ: ثَبِّتْ أَقْدَامَنَا فِي سَيْرِنَا عَلَىٰ طَرِيقِ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

حَتَّىٰ نَصِلَ بِكَ إِلَيْك.

ثُمَّ كَأَنَّهُ قَالَ لَهَا: وَمَنِ الَّذِينَ أَنْعَمْتُ عَلَيْهِمْ؟

فَقَالَتْ: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

فَانْظُرْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ كَيْفَ أَضْمَرَ السُّؤَالَ وَأَظْهَرَ الجَوَابَ؛ رَحْمَةً مِنْهُ بِعَامَّةِ المُسْلِمِينَ، وَلَوْ أَظْهَرَ السُّؤَالَ وَأَضْمَرَ الجَوَابَ لَمْ يَكُنْ يَهْتَدِي إِلَىٰ الجَوَابِ إِلَّا مَنْ خَصَّهُ مِنْ خَلْقِه.

فَالمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ: هُمُ اليَهُودُ. وَالضَّالُّونَ: هُمُ النَّصَارَىٰ. وَغَيْرُهُمْ ـ وَهُمُ الَّذِينَ اخْتَارَتْ نَفْسُ المُصَلِّي ـ هُمُ المُسْلِمُونَ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ تُؤَمِّنُ الحَفَظَةُ عَلَىٰ دُعَائِه، فَيَجْرِي ذَلِكَ عَلَىٰ لِسَانِه، وَإِنْ كَانَ إِمَامًا نَابَتْ أَلْسِنَةُ الجَمَاعَةِ عَنْ لِسَانِه.

فَإِنْ قُلْتَ: الفَاتِحَةُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ، وَأَنْتَ تُشِيرُ إِلَىٰ أَنَّ الحَقَّ سُبْحَانَهُ حَاكٍ لَهَا عَنْ خِطَابِ الأَرْوَاحِ فِي الأَزَلِ، كَسَائِرِ حِكَايَاتِ كِتَابِ اللهِ تَعَالَىٰ فِيمَا وَقَعَ بَيْنَ الرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَالجَوَابُ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ نَابَ عَنْهُمْ فِي قَدِيمِ أَزَلِهِ، فَطَلَبَ لَهُمْ مِنْهُ مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُمْ مِنْ طَلَبِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ،

فَكَانَ مِنْهُ الخِطَابُ وَمِنْهُ الجَوَابُ، ثُمَّ أَوْجَبَ عَلَيْهِم التَّعَبُّدَ لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ ظُهُورِ الأَشْبَاحِ؛ لِمَا عَلِمَ أَنَّ لَهُمْ فِي ذَلِكَ طَفْئًا لِغَضَبِهِ إِذَا ٱسْتَغْضَبُوهُ، وَٱسْتِجْلَابًا لِرِضَاهُ إِذَا ٱسْتَرْضَوْهُ وَٱسْتَغْفَرُوهُ، فَالفَاتِحَةُ كُلُّهَا فِي مَعْرِضِ الحِكَايَهِ، وَلَيْسَتْ بِحِكَايَةٍ.

فَائِدَةٌ

وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَتَىٰ بِالضَّمِيرِ المُفْرَدِ الدَّالِّ عَلَىٰ المُخْبِرِ عَنْ نَفْسِهِ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤] وَفِي الدُّعَاءِ ـ الَّذِي هُوَ طَلَبُ الهِدَايَةِ كَمَا قَدَّمْنَا ـ أَتَىٰ بِضَمِيرِ الأَلِفِ وَالنُّونِ الَّذِي هُوَ مُحْتَمِلٌ لِلْجَمْعِ وَالمُفْرَدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱهْدِنَا﴾ [الفاتحة: ٥]، وَالسِّرُّ فِيهِ ـ وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ ـ أَنَّ المُصَلِّيَ الَّذِي تَتَعَيَّنُ فِي حَقِّهِ القِرَاءَةُ هُوَ الفَذُّ وَالإِمَامُ، فَالفَذُّ يَنْوِي أَنَّهُ يَدْعُو لِنَفْسِهِ فَيَكُونُ الضَّمِيرُ لَائِقًا بِمَقْصِدِهِ، وَأَمَّا الإِمَامُ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُحْضِرَ نِيَّتَهُ عِنْدَ هَذِهِ اللَّفْظَةِ أَنَّهُ يَدْعُو لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ الضَّمِيرُ لَائِقًا بِمَقْصِدِهِ أَيْضًا، وَإِنْ لَمْ يُشْرِكْهُمْ فِي دُعَائِهِ فَقَدْ خَانَهُمْ؛ أَلَا تَرَىٰ أَنَّهُمْ يُؤَمِّنُونَ عَلَىٰ دُعَائِهِ عِنْدَ خَتْمِ الفَاتِحَةِ؟! وَلَوْلَا مُشَارَكَتُهُ إِيَّاهُمْ فِي طَلَبِ الهِدَايَةِ مَا شُرِعَ التَّأْمِينُ فِي حَقِّهِمْ، وَلَوْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَمْ يُشْرِكْهُمْ فِي طَلَبِهَا

مَا أَمَّنُوا عَلَىٰ دُعَائِهِ.

وَأَمَّا المَأْمُومُونَ فَقِرَاءَتُهَا إِنَّمَا هِيَ مُبَاحَةٌ فِي حَقِّهِمْ، وَمَنْ قَرَأَهَا مِنْهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يُشْرِكَ فِي دُعَائِهِ الجَمَاعَةَ كَافَّةً.

فَإِذَا قَرَأَ بَعْدَهَا سُورَةً أُخْرَىٰ أَنْصَتَ بِقَلْبِهِ إِلَىٰ مَاذَا يَقُولُ لَهُ رَبُّهُ، فَيَرَاهُ تَارَةً يُعَرِّفُهُ بِوَحْدَانِيَّتِه، وَتَارَةً يُعَلِّمُهُ كَيْفَ يَدْعُوه، وَتَارَةً يُبَشِّرُهُ بِثَوَابِه، وَتَارَةً يُحَذِّرُهُ مِنْ عِقَابِه، وَتَارَةً يُبَيِّنُ لَهُ فَضِيلَةَ نَبِيِّه، وَتَارَةً يُنَبِّهُهُ إِلَىٰ النَّظَرِ فِي عَجَائِبِ مَصْنُوعَاتِه، وَتَارَةً يُخْبِرُهُ بِأَهْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ وَحَسَرَاتِه، وَتَارَةً يُعَلِّمُهُ بِقِصَصٍ وَأَخْبَار، وَتَارَةً يُبَيِّنُ لَهُ صِفَةَ الجَنَّةِ وَالنَّار، وَتَارَةً يُبَيِّنُ لَهُ الحَلَالَ وَالحَرَام، وَتَارَةً يُحَرِّضُهُ عَلَىٰ فِعْلِ الخَيْرَات وَيُحَذِّرُهُ مِنَ الوُقُوعِ فِي الآثَام، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا احْتَوَىٰ عَلَيْهِ كِتَابُهُ العَزِيز.

فَإِذَا أَتَمَّ السُّورَةَ كَبَّرَ بِالتَّعْظِيمِ عَلَىٰ مَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ آيَاتٍ تَدُلُّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ السَّمِيعِ العَلِيم، فَٱنْعَطَفَ مُتَوَاضِعًا خَاضِعًا، فَسَبَّحَ اللهَ سُبْحَانَه.

وَمَعْنَىٰ التَّسْبِيحِ: تَنْزِيهُ البَارِئِ سُبْحَانَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِأُلُوهِيَّتِهِ.

فَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**» وَمَعْنَاهُ: أَجَابَ اللهُ

مَنْ دَعَاهُ، وَدُعَاءُ الْمُصَلِّي هُوَ قَوْلُهُ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٥].

ثُمَّ حَمِدَ اللهَ عَلَىٰ إِجَابَةِ دُعَائِهِ بِقَوْلِهِ: «**رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ**».

ثُمَّ هَوَىٰ إِلَىٰ الأَرْضِ مُعَظِّمًا لِلَّهِ سُبْحَانَهُ بِالتَّكْبِيرِ، فَطَرَحَ أَعْضَاءَهُ السَّبْعَةَ فِي الأَرْضِ تَوَاضُعًا لِلَّهِ تَعَالَىٰ كَمَا بَيَّنَ الشَّارِعُ ﷺ.

فَإِذَا طَرَحَ وَجْهَهُ فِي الأَرْضِ نَظَرَ إِلَىٰ مَا يُجْرِي اللهُ عَلَىٰ لِسَانِهِ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالدُّعَاءِ لِيَشْغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ أَنْ يُخَيَّلَ لَهُ فِي سُجُودِهِ أَنَّ رَبَّهُ أَمَامَهُ؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُخَيِّلُ ذَلِكَ، وَغَايَةُ مَا يَعْتَقِدُ الإِنْسَانُ أَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَاهُ، فِي قَبْضَةِ قُدْرَتِهِ، جَمِيعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ وَنُطْقُهُ وَصَمْتُهُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ أَقْرَبُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ٧]، يَعْنِي بِعِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، لَا بِالحُلُولِ فِي مَكَانٍ.

فَإِذَا قَامَ مُبَادِرًا إِلَىٰ حَمْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي هَدَاهُ لِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَأَدَاءِ مَا ٱفْتَرَضَهُ عَلَيْهِ وَمَنَّ عَلَيْهِ بِمُنَاجَاتِهِ، تَلَا الفَاتِحَةَ بِالتَّأَمُّلِ كَمَا ذَكَرْنَا لِأَنَّ فِي تَأَمُّلِهَا لِلْقَلْبِ شُغُلًا يَشْغَلُهُ عَنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ.

فَإِذَا طَرَأَ عَلَيْهِ سَهْوٌ بِحَدِيثِ نَفْسٍ، أَوْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ

تَذَكَّرَ، وَجَدَ فِي كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا مَا يُعِينُهُ عَلَىٰ دَفْعِهِ وَطَرْدِهِ مِنْ قَلْبِه، وَإِنْ تَذَكَّرَ فِي حَالِ رُكُوعِهِ أَوْ سُجُودِهِ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**ذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**»، وَإِنْ دَخَلَهُ رِيَاءٌ فِي صَلَاتِهِ نَوَىٰ مَعَ تَكْبِيرِهِ: «**نَظَرُ اللهِ أَكْبَرُ**»، وَاللهُ الْمُوَفِّقُ، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ.

وَٱنْظُرْ يَا أَخِي إِلَىٰ هَذِهِ الْعِنَايَةِ السَّرْمَدِيَّةِ الَّتِي سَبَقَتْ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ، حَيْثُ خَصَّهَا بِحِفْظِ الْقُرْآنِ فِي صُدُورِهَا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِأُمَّةٍ قَبْلَهَا، فَمَنْ لَمْ يَقْرَأْهُ كُلَّهُ وَلَا جُلَّهُ يَقْرَأُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ، وَفِي قِرَاءَةِ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ كِفَايَةٌ، وَلَكِنْ بِشَرْطِ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وَقَالَ فِي شَأْنِ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، فَلْيَحْذَرِ الْقَارِئُ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ مِنْ وَعِيدِ هَذِهِ الآيَةِ الْعَظِيمَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ طُبِعَ عَلَىٰ قَلْبِهِ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا.

وَمَعْنَىٰ التَّدَبُّرِ: هُوَ ٱمْتِثَالُ أَمْرِهِ وَٱجْتِنَابُ نَهْيِهِ، عِبَارَةً لِعُمُومِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَىٰ، وَإِشَارَةً لِخُصُوصِ خَلْقِ اللهِ، وَلِلْجَمِيعِ حَظٌّ فِي الْفَهْمِ عَنِ اللهِ، وَ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦٠].

وَأَيْسَرُهُ سُورَةُ الفَاتِحَةِ ، فَمَا مِنْ وَاحِدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ، لَا رِجَالًا وَلَا نِسَاءً ، لَا فِي الحَضَرِ وَلَا فِي البَوَادِي ، إِلَّا وَتَجِدُهُ يَقْرَؤُهَا ، إِلَّا القَلِيلَ مِمَّنْ لَا اعْتِنَاءَ لَهُمْ بِالدِّينِ مِنْ أَهْلِ الجِبَالِ وَالجِمَالِ ، وَفِي قِرَاءَتِهَا وَحْدَهَا لِمَنْ لَمْ يُمْكِنْهُ قِرَاءَةُ غَيْرِهَا كِفَايَةٌ فِي تَدَبُّرِهِ ، فَهِيَ الشَّافِيَةُ لِلصُّدُورِ مِنْ دَاءِ الجَهْلِ ، الكَافِيَةُ فِي التَّفَكُّرِ لِمَنْ لَهُ عَقْل .

وَكَيْفَ لَا وَقَدِ ٱشْتَمَلَتْ عَلَىٰ ثَنَاءٍ وَتَوْحِيدٍ ، وَتَعْرِيفٍ وَتَمْجِيدٍ ، وَتَفْرِيدٍ وَتَذْكِيرٍ بِيَوْمِ الوَعِيدِ ، وَإِخْلَاصِ العِبَادَةِ لِلَّهِ ، وَطَلَبِ الاسْتِعَانَةِ مِنْهُ عَلَيْهَا ، وَٱعْتِرَافٍ بِأَنَّ الهِدَايَةَ مِنَ اللهِ إِلَىٰ طَرِيقِ سَيْرِ أَحِبَّائِهِ عَلَيْهَا ، وَالتَّبَرِّي مِنْ سَبِيلِ أَهْلِ الجَحْدِ وَعَبَدَةِ الأَصْنَامِ ، وَالرِّضَا بِالثَّبَاتِ عَلَىٰ مِلَّةِ الإِسْلَامِ ، فَهَذِهِ آيَاتٌ مُحْكَمَات ، تَفَضَّلَ بِهَا عَلَيْنَا خَالِقُ الأَرَضِينَ وَالسَّمَوَات .

فَإِذَا جَلَسَ يَتَشَهَّدُ نَوَىٰ كَأَنَّهُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَىٰ وَرَسُولِهِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يُبَادِرَ إِلَىٰ تَعْظِيمِ اللهِ سُبْحَانَهُ بِاللَّفْظِ الَّذِي أَثْبَتَهُ إِمَامُنَا مَالِكٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

فَيَقُولُ: «**التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ**» وَمَعْنَاهَا: التَّعْظِيمَاتُ لِلَّهِ ، لَا يَسْتَحِقُّهَا سِوَاهُ ، «**الزَّاكِيَاتُ لِلَّهِ**» أَيْ: صِفَاتُ الكَمَالِ الطَّاهِرَةُ مِنَ النَّقْصِ لِلَّهِ

تَعَالَىٰ، «**الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ**» أَيْ: الطَّيِّبَاتُ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ؛ لِأَنَّهُ بَيَّنَ قَوْلَهُ «الطَّيِّبَاتُ» بِقَوْلِهِ «الصَّلَوَاتُ»، وَالصَّلَاةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ، وَإِضَافَةُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ تَشْرِيفًا وَتعْظِيمًا لِمَزِيَّتِهَا.

ثُمَّ يُثْنِي عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»، ثُمَّ يَنْوِي أَنَّ لِسَانَهُ نَائِبٌ عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**».

ثُمَّ يَشْهَدُ لِلَّهِ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ بِالرِّسَالَةِ بِقَوْلِهِ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»، وَلْيَقُلْ خَفَاءً: صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمَعْنَىٰ «**أَشْهَدُ**»: أَعْلَمُ، أَوْ أَتَيَقَّنُ، أَوْ أَتَحَقَّقُ.

وَمَعْنَىٰ «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»: نَفْيٌ لِمَا يَسْتَحِيلُ وُجُودُهُ وَهُوَ إِلَهٌ مَعَ اللهِ، وَإِثْبَاتٌ لِمَنْ يَسْتَحِيلُ عَدَمُهُ وَهُوَ اللهُ.

وَمَعْنَىٰ «**السَّلَام**»: الأَمَانُ، وَذَلِكَ عَلَىٰ وَجْهِ البُشْرَىٰ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ، هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الظَّاهِرِ.

وَقَالَ أَهْلُ المَعَانِي: السِّرُّ فِي التَّشَهُّدِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ وَأَوْقَفَهُ اللهُ حَيْثُ شَاءَ، عَلِمَ أَنَّهُ بِقُرْبٍ مِنْ رَبِّه، فَحَيَّاهُ بِقَوْلِهِ: «**التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، الزَّاكِيَاتُ لِلَّهِ، الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ**»، فَأَجَابَهُ الحَقُّ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»، فَطَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مِن رَبِّهِ أَنْ يُؤَمِّنَهُ هُوَ وَأَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ أُمَّتِه بقَوْلِه: «**السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**»، فَلَمَّا سَمِعَ المَلَكُ مِنْ خَلْفِ الحِجَابِ مُنَاجَاةَ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ رَبِّهِ ﷻ شَهِدَ لِلَّهِ بِالوَحْدَانِيَّةِ، وَلِرَسُولِهِ ﷺ بِالرِّسَالَةِ، فقَالَ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**»، فَأَمَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ الجَمِيعَ، النَّبِيَّ ﷺ، وَأَهْلَ الصَّلَاحِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالمَلَكَ بِقَوْلِهِ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**»، فَأَبْقَاهُ النَّبِيُّ ﷺ سُنَّةً لأُمَّتِهِ يُنَاجُونَ بِهَا رَبَّهُمْ فِي كُلِّ صَلَاةٍ، رَجَاءَ أَنْ يُؤَمِّنَهُمْ مِنْ غَضَبِهِ، فِي كُلِّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ.

فَعَلَىٰ هَذَا يَعْتَقِدُ المُتَشَهِّدُ أَنَّهُ حَاكٍ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «**التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، الزَّاكِيَاتُ لِلَّهِ، الطَّيِّبَاتُ الصَّلَوَاتُ لِلَّهِ**»، وَحَاكٍ لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**»، وَحَاكٍ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**السَّلامُ عَلَيْنَا وَعَلَىٰ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ**».

وَفِي الشَّهَادَتَيْنِ يَنْوِي كَأَنَّهُ السَّامِعُ لِمُنَاجَاةِ النَّبِيِّ ﷺ مع رَبِّهِ،

فيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَنْوِي أَنَّهُ حَاكٍ لِقَوْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**».

وَلْيَطِبْ عِنْدَ ذَلِكَ نَفْسًا بِكَوْنِهِ مِمَّنْ أَمَّنَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ لِأَنَّهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فِي حَضْرَةِ رَبِّهِ، وَلِأَنَّ أَدْنَى دَرَجَاتِ الصَّلَاحِ كَوْنُ المُؤْمِنِ صَلَحَ قَلْبُهُ لِقَبُولِ النُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَيَتَرَقَّى ٱسْمُ الصَّلَاحُ إِلَى دَرَجَاتِ المُرْسَلِينَ، كَمَا حَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] يَعْنِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

وَإِنْ كَانَ إِمَامًا نَوَى بِالسَّلَامِ الأَمَانَ لَهُ وَلِمَنْ خَلْفَهُ، فَلِأَجْلِ ذَلِكَ يُشِيرُ قَلِيلًا بِرَأْسِهِ عَنْ يَمِينِهِ، لِأَنَّ السَّلَامَ فِي اللُّغَةِ أَمَانٌ، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ للرَّجُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَدْ أَمَّنَهُ مِنْ شَرِّهِ وَمَكْرِهِ.

وَلَهُ مَعْنيَانِ، كَمَا أَنَّ لِلْمُصَلِّي أَحَدَ مَشْرَبَيْنِ: إِمَّا شُهُودُ التَّعْرِيفِ، أَوْ شُهُودُ التَّكْلِيفِ:

* **فَصَاحِبُ شُهُودِ التَّعْرِيفِ**: وَهُوَ صَاحِبُ شُهُودِ القِيَامِ لِلَّهِ وَبِاللهِ، عِنْدَ تَلَبُّسِهِ بِالطَّاعَةِ يُغَيِّبُ شُهُودَ فِعْلِهِ فِي شُهُودِ فِعْلِ اللهِ بِهِ، حَيْثُ يَسَّرَ عَلَيْهِ الطَّاعَاتِ وَجَعَلَهُ أَهْلًا لَهَا، فَالسَّلَامُ فِي حَقِّ هَذَا إِنَّمَا

هُوَ زِيَادَةُ بُشْرَىٰ وَكَمَالُ سُرُورٍ فِي فَرَحِهِ بِمِنَّةِ اللهِ.

❋ **وَصَاحِبُ شُهُودِ التَّكْلِيفِ:** وَهُوَ الَّذِي عِنْدَ تَلَبُّسِهِ بِالعَمَلِ يَشْهَدُ مَا كَلَّفَهُ اللهُ بِهِ لِرُؤْيَتِهِ العَمَلَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ، فَهُوَ يَعْمَلُ عَلَىٰ مُجَاهَدَتِهَا بِإِخْلَاصِ العَمَلِ لِلَّهِ تَعَالَىٰ، وَحُضُورِ القَلْبِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ ﷻ، فَلَا يَرَىٰ نَفْسَهُ إِلَّا مُقَصِّرًا فِي عَمَلِهِ، لَمْ يَقُمْ فِيهِ بِوَاجِبِ حَقِّ رَبِّهِ، فَالسَّلَامُ فِي حَقِّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ تَرْوِيحٌ عَلَىٰ قَلْبِهِ لِيَسْتَبْشِرَ بِعَفْوِ اللهِ، وَلِيُحَسِّنَ ظَنَّهُ بِاللهِ.

فَمَدْلُولُ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**» عَلَىٰ هَذَا الوَجْهِ: قَدْ أَمَّنْتُكُمْ، أَيْ: لَا نُؤَاخِذُكُمْ بِمَا لَا طَاقَةَ لَكُمْ بِهِ مِنْ ثُبُوتِ القَلْبِ عَلَىٰ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنْ هَذَا مَعَ صِدْقِ المُجَاهَدَةِ، لَا مَعَ الغَفْلَةِ وَالتَّلَذُّذِ بِحَدِيثِ النَّفْسِ، أَعَاذَنَا اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ شَرِّهِ.

فَإِذَا أَتَىٰ المُصَلِّي بِصَلَاتِهِ عَامِرَةً بِالتَّدَبُّرِ فِي عَظِيمِ هَدِيَّةِ اللهِ إِلَيْنَا فِيهَا، وَٱشْتِغَالِ القَلْبِ بِفَهْمِ مَعَانِيهَا، فَقَدْ عَمِلَ بِمَا عَلِم، وَلْيَسْأَلِ اللهَ أَنْ يُعَلِّمَهُ مَا لَمْ يَعْلَم.

وَلَا يُشْتَرَطُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِيَ بِجَمِيعِ هَذَا متَوَالِيًا حَتَّىٰ لَا يَخْطُرَ بِبَالِهِ شَيْءٌ آخَرُ؛ لِأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ عَلَىٰ دَفْعِ الوَارِدَاتِ قَبْلَ نُزُولِهَا؛ وَلِأَنَّ

القَلْبَ سَرِيعُ التَّقَلُّبِ، نَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَ تَقَلُّبَ قُلُوبِنَا فِي رِضَاهُ، وَأَنْ يَشْغَلَنَا بِذِكْرِهِ عَمَّا سِوَاهُ، فَإِنَّهُ أَهْلٌ لِذَلِكَ وَقَادِرٌ عَلَيْه، وَمُيَسِّرُهُ عَلَىٰ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُوَصِّلَهُ إِلَيْه.

وَإِنَّمَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ مُتَوَالِيًا لِكَيْ إِذَا طَرَأَ عَلَىٰ المُصَلِّي وَارِدٌ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ أَوْ وَسْوَسَةٍ، ثُمَّ تَنَبَّهَ، وَجَدَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْهَا مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَىٰ دَفْعِ تِلْكَ المُحَادَثَةِ النَّفْسَانِيَّةِ أَوِ الوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ.

فَهَذِهِ صَلَاةُ العَامَّةِ الَّتِي يَحْتَاجُونَ فِيهَا إِلَىٰ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ عَلَىٰ مُدَافَعَةِ الشَّيْطَانِ - لِتَمَكُّنِ الدُّنْيَا فِي قُلُوبِهِمْ - لِئَلَّا يُفْسِدَ عَلَيْهِمْ صَلَاتَهُمُ الَّتِي هِيَ رَأْسُ المَالِ وَأَسَاسُ الأَعْمَالِ، وَهِيَ ثَمَنُ الصُّلْحِ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ.

وَسُمِّيَتْ صَلَاةً لِأَنَّهَا صِلَةٌ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ، وَهِيَ كَمَا قَالَ السَّيِّدُ ابْنُ عَطَاءِ اللهِ رضي الله عنه: «**الصَّلَاةُ مَحَلُّ المُنَاجَاة، وَمَعْدِنُ المُصَافَاة، تَتَّسِعُ فِيهَا مَيَادِينُ الأَسْرَار، وَتُشْرِقُ فِيهَا شَوَارِقُ الأَنْوَار**»[١]، فَفِي كَلَامِهِ هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ المَقْصُودَ فِي الصَّلَاةِ إِنَّمَا هُوَ التَّدَبُّرُ وَالخُشُوعُ،

---

(١) الحكم العطائية (ص٦٤) الحكمة رقم: ١٢٢. دار الإمام ابن عرَفة.

كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤]، فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الصَّلَاةَ المُرَادَ مِنَ الآتِي بِهَا كَثْرَةُ ذِكْرِهِ تَعَالَىٰ، لَا القِيَامُ وَالقُعُودُ، وَلِأَجْلِ ذَلِكَ قَالَ ﷺ: «**جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي**[١] **فِي الصَّلَاةِ**»[٢]. فَقَوْلُهُ: «**فِيهَا**» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قُرَّةَ عَيْنِهِ بِمَا فِيهَا مِنَ الأَسْرَار، وَمُنَاجَاةِ العَزِيزِ الجَبَّار، وَلَوْ كَانَ مُرَادُهُ صُورَتَهَا لَقَالَ: بِهَا، أَيْ فِي الإِتْيَانِ بِهَا، فَافْهَمْ.

وَمِنْ أَيْنَ لِلْغَافِلِ فِيهَا بِحُصُولِ هَذِهِ الخِصَالِ العَظِيمَةِ القَدْرِ؟! فَلَا شَكَّ أَنَّهَا مَحَلُّ المُنَاجَاة، وَلَكِنْ كُلُّ مُنَاجٍ وَمَا يُنَاجِي، فَإِنْ كَانَ القَلْبُ شَغَلَهُ ذِكْرُ اللهِ ﷻ عَمَّا سِوَاهُ فَهُوَ يُنَاجِيهِ سُبْحَانَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تُشْرِقُ فِيهِ شَوَارِقُ الأَنْوَار، وَتَتَّسِعُ فِيهِ مَيَادِينُ الأَسْرَار، وَإِنْ كَانَ القَلْبُ شَغَلَهُ التَّفَكُّرُ فِي الدُّنْيَا وَأَحْوَالِهَا لَا يَزْدَادُ بِصَلَاتِهِ إِلَّا بُعْدًا مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا قَدَّمْنَاه.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٧٦) وقال: حديث صحيح على شرط مُسْلِم. ووافقه الذهبي.

(٢) **زرُّوق**: قرَّةُ العَيْنِ عِبَارَةٌ عنْ غايَة الفَرَحِ والسُّرورُ، ومنهم قَوْلُهُمْ: «أقرَّ اللهُ عينَكَ». فَقِيلَ: هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ القِرَىٰ ٱلَّذِي هُوَ الثَّبَاتُ؛ لِأَنَّ عَيْنَ الخَائِفِ لَا تَسْتَقِرُّ. وَقِيلَ: مِنَ القَرِّ ٱلَّذِي هُوَ البَرْدُ؛ لِأَنَّ دَمْعَةَ الحُزْنِ حَارَّةٌ وَدَمْعَةُ الفَرَحِ بَارِدَةٌ، وَأَعْظَمُ الفَرَحِ فَرَحٌ تَنْدَفِعُ مِنْهُ الدَّمْعَةُ. (مفتاح الفضائل والنعم في الكلام على بعض ما يتعلق بالحكم، ص ٨٤٤. دار الإمام ابن عرفة).

وَيَكْفِينَا حُجَّةً فِي بَيَانِ مَا قُلْنَاهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «**مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهَرٍ عَذْبٍ غَمْرٍ بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَقْتَحِمُهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَهَلْ تَرَوْنَ يُبْقِي ذَلِكَ مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا؟**» قَالُوا بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فكَذَلِكَ الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ لَا تُبْقِي عَلَىٰ الآتِي بِهَا ذَنْبًا**»(١).

وَمَعْلُومٌ عِنْدَنَا بِالمُشَاهَدَةِ أَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ بِأَحَدِ أَعْضَائِهِ سَوَادٌ مِنْ فَحْمٍ أَوْ مِدَادٍ أَوْ مَا أَشْبَهَهُ أَنَّهُ لَا يَزُولُ بِمُجَرَّدِ غَمْسِهِ فِي المَاءِ، وَلَوْ غَمَسَهُ مِرَارًا عَدِيدَةً، فَإِنَّ أَثَرَهُ يَبْقَىٰ لَا مَحَالَةَ، إِلَّا إِذَا غَمَسَهُ فِي المَاءِ وَبَالَغَ فِي دَلْكِهِ.

فَالتَّدَبُّرُ فِي الصَّلَاةِ وَالخُشُوعُ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ الدَّلْكِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الذُّنُوبَ أَعْرَاضٌ سُودٌ تُغَطِّي نُورَ القَلْبِ بِسَوَادِهَا؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]، فَلَا يُزِيلُهَا إِلَّا كَثْرَةُ التَّفَكُّرِ وَمُلَازَمَةُ الاسْتِغْفَارِ، وَالتَّأَدُّبُ بَيْنَ يَدَي المَلِكِ القَهَّار، وَالتَّضَرُّعُ إِلَىٰ اللهِ سُبْحَانَهُ وَالتَّذَلُّلُ وَالانْكِسَار، وَشُغُلُ القَلْبِ بِالله، وَنِسْيَانُ كُلِّ مَا سِوَىٰ الله، وَإِلَّا فَهِيَ بَاقِيَةٌ كَمَا كَانَتْ، بَلْ تَزِيدُ سَوَادًا عَلَىٰ سَوَاد.

(١) الموطأ (٤٣٢) والبخاري (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧).

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ شَافِيَةٌ كَافِيَةٌ لِمَنْ أَرَادَ الاسْتِعَانَةَ عَلَىٰ حَرْبِ عَدُوِّهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ، وَمَعْرِفَةُ هَذَا وَاجِبَةٌ عَلَىٰ كُلِّ قَارِئٍ، وَهِيَ فِي حَقِّ الأَئِمَّةِ آكَدُ لِتَكُونُ لَهُمْ مَزِيَّةٌ عَلَىٰ مَنْ خَلْفَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ، وَلَمْ يَعْتَنُوا بِصَلَاحِ بَاطِنِهِمْ، وَالمُحَافَظَةِ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ، فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمُوا عَلَىٰ أَمْثَالِهِمْ، بَلْ رُبَّمَا يَكُونُ فِيمَنْ خَلْفَهُمْ مَنْ هُوَ أَعْرَفُ مِنْهُمْ.

وَهَذَا هُوَ العِلْمُ النَّافِعُ المَفْرُوضُ عَلَىٰ كُلِّ أَحَد، الَّذِي لَا يَحْمِلُهُ أَحَدٌ عَنْ أَحَد، وَإِنَّمَا يَلْزَمُ كُلَّ أَحَدٍ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ.

وَقَدْ عَرَّفَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَضِيلَةِ مَنِ ٱتَّصَفَ بِهِ حيْثُ قَالَ ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[1]، فَهَذَا هُوَ آكَدُ الفِقْهِ فِي الدِّينِ.

وَنَتِيجَةُ المَعْرِفَةِ مُتَابَعَةُ العِلْمِ بِالعَمَلِ، لَا العِلْمُ مِنْ غَيْرِ عَمَلٍ، فَيَكُونَ كَحَجَرٍ مَاءُ النَّهَرِ يَجْرِي عَلَىٰ ظَاهِرِهِ وَقَلْبُهُ يَابِسٌ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَهُ فِي الحَقِيقَةِ وَبَيْنَ حَجَرِ الصَّحْرَاءِ، فَٱفْهَمْ؛ فَهَذَا مِثَالُ عَالِمِ الأَقْوَالِ مُخَالِفِ الأَعْمَالِ، وَعَالِمِ اللِّسَانِ غَافِلِ الجَنَانِ.

وَأَمَّا العَامَّةُ فَمَنْ كَانَ لَهُ فَهْمٌ يُدْرِكُ بِهِ مِثْلَ هَذَا فَلَا يَجُوزُ لَهُ التَّغَافُلُ عَنْهُ، وَمَنْ لَا فَهْمَ مَعَهُ يَكْفِيهِ ٱمْتِثَالُ أَمْرِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالطَّهَارَة، وَإِسْبَاغِ

(١) البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

الوُضُوء، وَإِتْيَانِ المَسَاجِد، وَتَأْدِيَةِ الصَّلَاةِ بِتَمَامِ رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ خُشُوعِهَا، فَمَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِم، أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَم.

وَمِنْ هَاهُنَا تَعْلَمُ أَيُّهَا الأَخُ حَالَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْه، فَقَدْ نَبَّهْتُكَ عَلَىٰ مَا فِيهِ صَلَاحُ دِينِك، فَإِنْ وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ نَشَاطًا وَنُهُوضَ هِمَّةٍ لِإِصْلَاحِ بَاطِنِهَا وَمُحَارَبَةِ عَدُوِّكَ فَٱسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ تَوْفِيقِ اللهِ إِيَّاكَ، وَزِدْ تَزْدَدْ، وَإِنْ وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ تَكَاسُلًا وَفُتُورَ هِمَّةٍ وَزُهْدًا فِيمَا أَشَرْتُ بِهِ عَلَيْك، وَرَضِيتَ بِالأَدْوَنِ فِي دِينِك، فَاسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَىٰ خُذْلَانِك، وَٱعْلَمْ أَنَّكَ مِمَّنْ تَشْمَلُهُ إِشَارَةُ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

وَأَمَّا الخَاصَّةُ فَإِنَّهُمْ بِمَعْزِلٍ عَنْ هَذَا كُلِّهِ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ عَامِرَةٌ بِذِكْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ فِي سَائِرِ أَوْقَاتِهِمْ، فَأَحْرَىٰ فِي الصَّلَاةِ، فَهُمْ فِي مَقَامِ الفَنَاءِ؛ فَإِذَا وَقَفُوا فِي مُصَلَّاهُمْ فَنِيَتْ نُفُوسُهُمْ، وَصَارَتْ حَرَكَاتُهُمْ وَسَكَنَاتُهُمْ بِاللهِ وَلِلَّهِ، فَلَمْ يَجِدِ الشَّيْطَانُ إِلَىٰ التَّمَكُّنِ مِنْ قُلُوبِهِمْ سَبِيلًا.

وَأَمَّا خَاصَّةُ الخَاصَّةِ فَلَمْ أَدْرِ كَيْفَ هِيَ أَحْوَالُهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ؛ لِأَنَّ

مَنْ كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ سُفْلَىٰ لَا سَبِيلَ لَهُ إِلَىٰ وَصْفِ مَنْزِلَةِ مَنْ هُوَ أَعْلَىٰ ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ .

تَنْبِيهٌ

اعْلَمْ أَيُّهَا الأَخُ أَنَّهُ لَا يَبْعُدُ أَنْ نَقُولَ : وَمَنْ يُطِيقُ انْضِبَاطَ فِكْرِهِ مِنَ التَّنَبُّهِ ٱبْتِدَاءً بِهَذَا كُلِّهِ ؟! فَإِنَّ ذَلِكَ سَهْلٌ عَلَىٰ مَنْ يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِمُلَازَمَةِ النَّظَرِ فِيهِ حَتَّىٰ يَتَقَرَّرَ عِنْدَكَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ مَا يُنَاسِبُهَا مِنَ المَعْنَىٰ اللَّائِقِ بِهَا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ تَجْتَهِدُ فِي تَأَمُّلِ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ بِإِحْضَارِ معْنَىٰ كُلِّ كَلِمَةٍ عِنْدَ النُّطْقِ بِهَا .

وَلْتَكُنْ قِرَاءَتُكَ بِتَرْتِيلٍ ، وَرُكُوعُكَ وَسُجُودُكَ بِمُهْلَةٍ ، وَتُلَازِمُ تِلْكَ الحَالَةَ وَلَوْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَإِنَّ قَلْبَكَ يَأْنَسُ بِذَلِكَ ، وَيَصِيرُ لَهُ مَقَامًا ، وَتَذْهَبُ عَنْكَ تِلْكَ الوَسَاوِسُ ، وَلَا يَبْقَىٰ لَهَا أَثَرٌ ؛ لِأَنَّ البَاطِلَ لَا ثُبُوتَ لَهُ مَعَ الحَقِّ ؛ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

وَإِذَا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ اجْتِهَادِكَ شَرَحَ صَدْرَكَ ؛ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَنَا بِجِهَادِ العَدُوِّ وَالثَّبَاتِ لَحْرِبِهِ فَقَطْ، وَلَمْ يُكَلِّفْنَا بِأَنْ نَغْلِبَه، وَإِنَّمَا أَمَرَنَا بِالصَّبْر، وَوَعَدَنَا عَلَيْهِ بِالنَّصْر، فَوَاجِبٌ عَلَيْنَا أَنْ نُجَاهِدَ عَدُوَّنَا جَهْدَ الاسْتِطَاعَةِ، وَلَا نُسَلِّمَ لَهُ أَنْفُسَنَا، وَلَا نَمَلَّ مِنْ مُحَارَبَتِهِ إِلَىٰ آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أَعْمَارِنَا؛ أَمَا تَرَاهُ مَا يَمَلُّ مِنْ مُحَارَبَتِنَا وَالْتِمَاسِ إِغْوَائِنَا مَعَ أَنَّهُ لَا يَنَالُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا شِقَايَةَ قَلْبِهِ فَقَطْ؟! وَنَحْنُ نَنَالُ مِنْ مُحَارَبَتِهِ رِضَىٰ مَوْلَانَا سُبْحَانَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَالخُلُودَ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، وَزِيَادَةَ النَّظَرِ فِي وَجْهِهِ.

نَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ بِنَبِيِّهِ الكَرِيمِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيمِ أَنْ يَجْعَلَ هِمَّتَنَا مُتَعَلِّقَةً بِأَمْرِ الدِّين، وَيَسْلُكَ بِنَا مَسْلَكَ أَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِين، وَيَقْطَعَ عَنَّا التَّعَلُّقَ بِمَا سِوَاه، وَيَجْعَلَ غَايَةَ مُرَادِنَا وَجْهَ الله، كَمَا قَالَ قَائِلُهُمْ:

وَمَنْ كَانَ وَجْهُ اللهِ أَغْيَا مُرَادِه ❊ فَلَيْسَ لَهُ فِي الكَوْنِ دُنْيَا وَلَا أُخْرَىٰ

وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ يَكُونُ يَوْمُهُ خَيْرًا مِنْ أَمْسِه، وَمِمَّنْ يَجِدُ السُّرُورَ عِنْدَ حُلُولِ رَمْسِه، فَإِنَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيق، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيل.

❊ ❊ ❊

خَاتِمَةٌ

تُبَيِّنُ أَحْكَامَ قَوَاعِدِ بَعْضِ مَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِمَّا تَيَسَّرَ فَهْمُهُ وَجُهِلَ حُكْمُهُ اعْتِرَاضًا وَجَوَابًا وَاللهُ تَعَالَى المُوَفِّقُ لِلصَّوَاب

فَإِنْ قِيلَ: مَا مَدْلُولُ قَوْلِ المُؤَذِّنِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» ؟ وَمَا نَتِيجَتُهُ ؟

وَمَا مَدْلُولُ قَوْلِ المُقِيمِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» ؟ وَمَا نَتِيجَتُهُ ؟

وَمَا مَدْلُولُ قَوْلِ المُحْرِمِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» ؟ وَمَا نَتِيجَتُهُ ؟

وَمَا السِّرُّ فِي تَكْرَارِ التَّكْبِيرِ فِي الصَّلَاةِ لِلْعَامَّةِ وَالخَاصَّةِ ؟

وَبِأَيِّ نِيَّةٍ يَدْخُلُ المُصَلِّي فِي صَلَاتِهِ بَعْدَ اعْتِقَادِ نِيَّةِ التَّقَرُّبِ وَأَدَاءِ الفَرِيضَةِ ؟

١ ـ أَيَدْخُلُ بِنِيَّةِ أَنَّهُ يَأْتِي بِهَا كَامِلَةَ الشُّرُوطِ مِنْ خُشُوعِهَا، وَخُضُوعِهَا، وَحُضُورِ القَلْبِ مَعَ اللهِ فِيهَا ؟

٢ ـ أَمْ يَدْخُلُ بِنِيَّةِ أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَأْتِي بِمَا اسْتَطَاعَ ؟

٣ ـ أَمْ يَدْخُلُ غَافِلًا عَنْ هَذَا كُلِّهِ، وَحَدُّ تَكْلِيفِهِ الإِتْيَانُ بِصُورَتِهَا فَقَطْ ؟

فَالجَوَابُ أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ كُلَّهَا مَدْخُولَةٌ مَعْلُولَةٌ ، لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ تَكْبِيرِ اللهِ ، وَالمُبَادَرَةِ بِحَمْدِ اللهِ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

أَمَّا قَوْلُنَا: مَا مَدْلُولُ قَوْلِ المُؤَذِّنِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» ؟ فَمَدْلُولُهُ: دَاعِي اللهِ أَكْبَرُ فَأَجِيبُوهُ. وَنَتِيجَتُهُ: الرَّمْيُ بِالأَسْبَابِ ، وَالمُبَادَرَةُ إِلَىٰ ٱمْتِثَالِ أَمْرِ المَلِكِ الوَهَّاب.

وَقَوْلُ المُقِيمِ «**اللهُ أَكْبَرُ**» مَدْلُولُهُ: أَمْرُ اللهِ أَكْبَرُ فَٱمْتَثِلُوهُ ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَىٰ السَّامِعَ يَقُولُ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. وَنَتِيجَتُهُ: تَفْرِيغُ القُلُوب ، لِمُنَاجَاةِ عَلَّامِ الغُيُوب.

وَأَمَّا قَوْلُ المُحْرِمِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» فَمَدْلُولُهُ القِيَامُ لِلَّهِ بِاللهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، وَنَتِيجَتُهُ المَحَبَّةُ فِي اللهِ ؛ لِأَنَّ المُصَلِّيَ إِذَا نَظَرَ إِلَىٰ نِعْمَةِ الهِدَايَةِ وَبُشْرَىٰ السَّعَادَةِ عَبَدَ اللهَ عَلَىٰ المَحَبَّة ، وَهِيَ أَجَلُّ مَقَامَاتِ العَارِفِين.

وَأَمَّا قَوْلُنَا فِي المُصَلِّي: أَيَدْخُل بنِيَّةِ الإِتْيَانِ بجَمِيعِ شُرُوطِ كمالِ الصَّلاة ؟ أَوْ بِنِيَّةِ العَجْزِ عنْ ذَلكَ كُلِّهِ ؟ أمْ تَكْفِيه نِيَّةُ الغَفْلَةِ عَنِ الجَمِيع ؟

فَالجَوَابُ أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: يَدْخُلُ بِنِيَّةِ الإِتْيَانِ بِشُرُوطِ الكَمَالِ ، فَقَدْ

دَخَلْتَ عَلَىٰ شَرْطٍ لَيْسَ كُلُّهُ فِي مَقْدُورِكَ ؛ لِأَنَّ وَارِدَاتِ القُلُوبِ لَا طَاقَةَ لِلْإِنْسَانِ عَلَىٰ دَفْعِهَا قَبْلَ نُزُولِهَا .

وَالمُنَاسِبُ لِشَرْطِكَ الافْتِتَاحُ بِـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤] ، فَإِذَا أَتَيْتَ بِمَا شَرَطْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ حِينَئِذٍ فَٱحْمَدِ اللهَ تَعَالَىٰ الَّذِي قَوَّاكَ حَتَّىٰ أَتَيْتَ بِمَا شَرَطْتَ(١) .

وَأَيْضًا فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ هَذِهِ النِّيَّةِ وَبَيْنَ قَوْلِكَ: «**اللهُ أَكْبَرُ**» .

فَإِنْ قُلْتَ: قَصَدْتُ بِقَوْلِي: «**اللهُ أَكْبَرُ**» مُجَرَّدَ التَّعْظِيمِ .

فَالجَوَابُ أَنَّ لَفْظَةَ «**اللهُ أَكْبَرُ**» فِي مَعْرُوفِ اللُّغَةِ إِنَّمَا هِيَ لِتَعْظِيمِ أَحَدِ المُتَقَابِلَيْنِ عَلَىٰ الآخَرِ ، أَلَا تَرَىٰ إِلَىٰ قِصَّةِ الخَلِيلِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، رَأَىٰ الكَوْكَبَ أَوَّلًا ثُمَّ رَأَىٰ القَمَرَ بَعْدَهُ ثُمَّ رَأَىٰ الشَّمْسَ بَعْدَهُمَا فَقَالَ: ﴿ هَٰذَآ أَكۡبَرُ ﴾ [الأنعام: ٧٨] أَيْ: أَكْبَرُ آيَةٍ ، وَهَذِهِ النِّيَّةُ لَمْ يُقَابِلْهَا شَيْءٌ .

وَإِنْ قُلْتَ: يَدْخُلُ بِنِيَّةِ أَنَّهُ مُقَصِّرٌ فِي تَوْفِيَةِ شُرُوطِ الصَّلَاةِ مِنْ خُشُوعِهَا وَخُضُوعِهَا ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَأْتِي بِمَا تَيَسَّرَ عَلَيْهِ ، فَمَا وَجْهُ المُنَاسَبَةِ أَيْضًا بَيْنَ هَذِهِ النِّيَّةِ وَبَيْنَ تَكْبِيرِ اللهِ وَالمُبَادَرَةِ بِحَمْدِ اللهِ؟ فَهَلْ يَحْمَدُ

(١) يعني: وهذا خلافُ نظم الفاتحة ، وفيه إشارةٌ إلىٰ عدم صلاحية تلك النية .

اللهَ عَلَىٰ التَّقْصِيرِ فِي دِينِهِ؟! بَلْ سَبِيلُهُ المَعْذِرَةُ وَالاسْتِغْفَارُ.

وَلَا حُجَّةَ لَهُ فِي قَوْلِهِ: «اعْتَرَفْتُ بِعَجْزِي»؛ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَهُ بِالمُجَاهَدَةِ، وَلَعَلَّ اللهَ يُقَوِّيهِ عَلَىٰ حُضُورِ قَلْبِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، وَلَا نِيَّةَ أَيْضًا تُقَابِلُ هَذِهِ النِّيَّةَ تَلِيقُ بِالتَّكْبِيرِ يُكَبِّرُ اللهَ عَلَيْهَا، وَلَا وَجْهَ لِتَكْبِيرِ اللهِ إِثْرَ هَذِهِ النِّيَّةِ.

وَحُجَّةُ فَسَادِ هَاتَيْنِ النِّيَّتَيْنِ هُوَ قَوْلُ السَّيِّدِ ٱبْنِ عَطَاءِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي حِكَمِهِ: «**لَا يَخْلُو شُهُودُ التَّقْصِيرِ مِنْ وُجُودِ الشِّرْكِ فِي التَّقْدِيرِ**»[(١)].

وَلَكَ أَنْ تَحْكُمَ في شُهُودِ الكمالِ بِذَلِكَ فَتَقُولُ: «لَا يَخْلُو شُهُودُ الكَمَال، مِنْ وُجُودِ الشِّرْكِ فِي الأَعْمَال»؛ لأَنَّ العِلَّةَ فيهِمَا واحِدَةٌ فِي وُجُودِ الشِّرْكِ وَهْيَ رُؤْيَةُ العَمَلِ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ.

(١) ٱبْنُ عَطَاءِ اللهِ: مَنْ كَانَ يَشْهَدُ تَقْصِيرَهُ فلِعِلَّةِ رُؤْيَةِ نَفْسِهِ، فَلَمْ يَخْرُجْ عَن باطِنِ الشِّرْك وإنْ خَرَج عَنْ ظاهِره؛ لأنَّه أَقْبَل علىٰ نَفْسِهِ مُوَبِّخًا لها، شاهِدًا لتَقْصِيرها وإِسَاءتِهَا، فلَوْ لَمْ يَشْهَدِ الفِعْلَ لها أو مِنْها مَا توجَّه إليها بالتوبيخ إذَا قَصَّرتْ، فلذلك قالَ العارِفُ: «**لَا يَخْلُو شُهُودُ التَّقْصِير مِنَ الشِّرْك في التَّقْدِير**». فإن قلتَ: إذا كان توبيخُ النفسِ وذمُّها يستلزم دقيقة الشِّركِ فكيف نَصْنَعُ واللهُ قَدْ ذمَّ النَّفْسَ وأمَرَنا بتَوْبِيخِها إذا قصَّرتْ، ووبَّخها هو إذَا كانت كذلك؟ فالجواب أن ذمَّها لأنَّ اللهَ أمرَكَ بذَمِّها، مِنْ غَيْرِ أن تشهَدَ لها قدرةً أو تُضِيف لها فعلًا تراهَا هي الفاعلةَ له. (لطائف المنن، ص١٦٩ ـ ١٧٠).

وَأَمَّا الَّذِي دَخَلَ لَا نِيَّةَ لَهُ فَهُوَ أَبْعَدُ كُلِّ بَعِيدٍ، لَا كَلَامَ مَعَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ عَوَامِّ خَلْقِ اللهِ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ لِسَانُ العِلْمِ: يُقْنَعُ مِنَ البَطَّالِ بِأَقَلِّ مَا يَقَعُ بِهِ ٱسْمُ الصَّلَاةِ.

وَالحُجَّةُ القَاطِعَةُ لِهَذِهِ العِلَلِ كُلِّهَا، وَالنِّيَّةُ الصَّالِحَةُ المُتَضَمِّنَةُ خَلَاصَ صَاحِبَهَا، أَنْ يَغِيبَ النَّقْصُ وَالكَمَال، فِي شُهُودِ مِنَّةِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ، مُنْشِيهَا وَمُجْرِيهَا، وَمُيَسِّرِهَا وَمُهْدِيهَا، الَّذِي دَعَاكَ وَوَفَّقَكَ لِلْإِجَابَة، وَأَقْبَلَ عَلَيْكَ بِفَضْلِهِ وَفَتَحَ لَكَ بَابَه، وَأَوْقَفَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَٱرْتَضَاكَ لِمُنَاجَاتِه، فَصِرْتَ تُخَاطِبُهُ بِمُحْكمَاتِ آيَاتِه، وَأَيْنَ عِبَادَتُكَ بِأَسْرِهَا كَمَالُهَا وَنَقْصُهَا، وَعَدْلُكَ وَإِحْسَانُك، وَطَاعَتُكَ وَعِصْيَانُك، حِينَ حَبَّبَ إِلَيْكَ الإِيمَان، وَكَرَّهَ إِلَيْكَ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَان؟! كُلُّ ذَلِكَ بِمَحْضِ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِه.

فَإِذَا أَحْضَرَ المُصَلِّي شُهُودَ المِنَّةِ فِي البِدَايَة، كَبَّرَ اللهَ عِنْدَ ذَلِكَ عَلَىٰ الهِدَايَة، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فَيَكُونُ فِي ضِمْنِ قَوْلِهِ: «**اللهُ أَكْبَرُ**: مِنَّةُ اللهِ عَلَيَّ أَكْبَرُ مِنْ عِبَادَتِي لَهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُبَادِرُ بِحَمْدِ اللهِ بِقَلْبٍ مُشْتَاقٍ، كَمَنْ حَمِدَ اللهَ عَلَىٰ شَرْبَةِ مَاءٍ بَارِدٍ فِي وَقْتِ حَرٍّ.

فَإِذَا قَالَ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الفاتحة: ١] بِالمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ ٱزْدَادَ ٱشْتِيَاقًا عَلَى ٱشْتِيَاقٍ، فَلَا يَزَالُ فَارِحًا بِاللهِ، رَاضِيًا عَنِ اللهِ، مُتَعَلِّقَ القَلْبِ بِاللهِ، إِذَا وَقَفَ وَقَفَ لِمُنَاجَاةِ اللهِ، وَإِذَا جَلَسَ جَلَسَ لِحَضْرَةِ اللهِ، نَاسِيًا لِفِعْلِه، مُشَاهِدًا لِفِعْلِ اللهِ بِه.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ١] تَجَلَّى لِقَلْبِهِ أَنَّ مَا فِي العَالَمِ العُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ كُلُّهُ خَلْقُ اللهِ، وَكُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ، وَكُلُّهُمْ مُلْتَمِسُونَ فَضْلَ اللهِ.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الفاتحة: ٢] تَجَلَّى لِقَلْبِهِ إِجْرَاءُ نِعَمِهِ عَلَى البَارِّ وَالفَاجِر.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٢] تَجَلَّى لِقَلْبِهِ مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ عِبَادَهُ المُؤْمِنِينَ فِي الجَنَّةِ مِنْ حُورِهَا وَقُصُورِهَا.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة: ٣] تَجَلَّى لِقَلْبِهِ النَّشْرُ وَمِحْنَتُه، وَالحَشْرُ وَحَسْرَتُه.

فَهَذَا حَظُّ المُصَلِّي مِنْ مَقَامِ صَاحِبِ **عِلْمِ اليَقِينِ**.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤] غَابَ عَنِ

العَوَالِمِ كُلِّهَا، عُلْوِيِّهَا وَسُفْلِيِّهَا، وَتَجَلَّىٰ الرَّبُّ لِلْقَلْبِ فَلَا يَرَىٰ فِي المُلْك، إِلَّا مَالِكَ المُلْك.

وَهَذَا حَظُّ المُصَلِّي مِنْ مَقَامِ صَاحِبِ **عَيْنِ اليَقِين**.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٥ ـ ٦] تَجَلَّىٰ لِقَلْبِهِ طَرِيقُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِين.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٧] اسْتَشْعَرَ التَّبَرِّي مِنْ مَذْهَبِ طَائِفَةِ اليَهُود.

فَإِذَا قَالَ: ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٧] اسْتَشْعَرَ التَّبَرِّي مِنْ مَذْهَبِ طَائِفَةِ النَّصَارَىٰ.

وَهَذَا حَظُّ المُصَلِّي مِنْ مَقَامِ صَاحِبِ **حَقِّ اليَقِين**.

فَإِنْ قِيلَ: مِنْ أَيْنَ يُقْتَبَسُ المَقَامُ الثَّالِثُ مِنْ هَذِهِ الجُمْلَةِ؟

فَأَقُولُ: مِنْ طَلَبِ التَّمْكِينِ، وَالرُّسُوخِ فِي اليَقِين، فِي قَوْلِهِ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٥] بَعْدَ مُخَاطَبَةِ عَيْنِ اليَقِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٤].

فَإِذَا قَالَ: «**آمين**»، ٱسْتَشْعَرَ نَيْلَ مَا طَلَبَ مِنْ رَبِّ العَالَمِين.

فَهَذِهِ طَرِيقَةٌ شَاذِلِيَّة ، **طَرِيقَةُ المُشَاهَدَة** ، وَهِيَ طَرِيقَةُ أُسْتَاذِنَا رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ، العَمَلُ فِيهَا عَلَىٰ شُهُودِ المِنَّة ، نَتِيجَتُهَا الفَنَاءُ عَنْ رُؤْيَةِ النَّفْسِ فِي العَمَل ؛ لِاسْتِغْرَاقِ هِمَّةِ العَامِلِ فِي شُهُودِ المَعْمُول لَهُ ، وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»[١] ، فَصَاحِبُهَا مَصْحُوبٌ بِالنُّورِ مِنْ أَوَّلِ قَدَم .

وَأَمَّا طَرِيقَةُ الغَزَالِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ، وَهِيَ **طَرِيقَةُ المُرَاقَبَة** ، فَالعَمَلُ فيهَا عَلَىٰ مُجَاهَدَةِ النَّفْس ، وَنِسْبَةِ العَمَلِ إِلَيْها ، وَتَحَقُّقِ مُرَاقَبَةِ اللهِ عَلَيْهَا فِي كُلِّ حَال ، وَهِيَ طَرِيقَةُ العُبَّادِ وَالزُّهَّاد ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الغَالِبُ عَلَيْهِم القَبْضُ وَالكَمَدُ ، فَالكَلَامُ فِيهَا يَطُولُ ، وَلِلْبَحْثِ فِيهَا مَجَالٌ ، وَإِلَيْهَا الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» أَيْ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِمَّنْ يَرَىٰ رَبَّهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، حَتَّىٰ يَفْنَىٰ فِيهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّهُ يَرَاكَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِكَ وَسَكَنَاتِكَ ، وَنُطْقِكَ وَصَمْتِك ، وَجَمِيعِ أَحْوَالِك ، فَٱحْذَرْه .

فَإِذَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بِمَا فَوْقَ هَذِهِ غَابَ عَنْ رُؤْيَةِ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ فِي شُهُودِ الفَعَّال ، فَيَرَىٰ حِكْمَةَ اللهِ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ لِعَظَمَةِ الله .

---

(١) البخاري (٥٠) ومسلم (٨).

فَإِنْ قُلْتَ: مَا حِكْمَةُ اللهِ؟

فَهُوَ جَسَدُكَ وَمَا احْتَوَىٰ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهَلْ جَمِيعُ حِكْمَةِ اللهِ تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ لِعَظَمَةِ اللهِ؟

فَأَقُولُ مَا قَالَ العَزِيزُ الغَفُور: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

وَأَمَّا قَوْلُنَا: وَمَا السِّرُّ فِي تَكْرَارِ التَّكْبِيرِ فِي الصَّلَاةِ لِلْعَامَّةِ وَالخَاصَّةِ؟

فَالسِّرُّ فِيهِ ـ وَاللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَمُ ـ أَنَّ العَرَبَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ، فَإِذَا دَخَلُوا عَلَيْهَا حَيَّوْهَا بِأَطْيَبِ كَلَامِهِمْ، وَيَجْعَلُونَهَا قُبَالَةَ وُجُوهِهِمْ وَيَسْجُدُونَ لَهَا مُشَافَهَةً، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ وَدَعَاهُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ اللهِ سُبْحَانَه، شَرَحَ اللهُ صُدُورَهُمْ لِذَلِكَ، فَأَجَابُوهُ لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْه.

فَلَمَّا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ عَلِمَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ إِذَا وَقَفُوا لِعِبَادَتِهِ يَتَخَيَّلُ لِنُفُوسِهِمْ مَا كَانَتْ أَلِفَتْهُ وَنَشَأَتْ عَلَيْهِ مِنْ صُوَرِ الأَصْنَام، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَىٰ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَفْتَتِحَ الصَّلَاةَ بِتَكْبِيرِ اللهِ، وَأَنْ يُكَرِّرَهُ عِنْدَ قِيَامِهِ وَقُعُودِهِ وَرُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ طَرْدًا لِمَا يَتَخَيَّلُ لَهُمْ فِي

نُفُوسِهِمْ مِنْ صُوَرِ الأَصْنَام؛ لِأَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ اللهُ، زَهِقَ مَا سِوَاهُ.

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَىٰ قُوَّةِ إِيمَانِهِمْ وَعَظِيمِ تَصْدِيقِهِمْ حَيْثُ تَرَكُوا عِبَادَةَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُ مُشَافَهَةً، فَصَارُوا يَعْبُدُونَ اللهَ وَحْدَهُ إِيمَانًا بِالغَيْبِ، فَأَثْنَىٰ اللهُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ذَلِكَ حَيْثُ قَالَ: ﴿ الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ② ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١ ـ ٥].

فَلَمَّا مَضَىٰ السَّلَفُ وَجَاءَ الخَلَفُ ذَهَبَتِ العِلَّةُ الَّتِي هِيَ تَخَيُّلُ صُورَةِ الأَصْنَام، وَبَقِيَتِ الوَسْوَسَةُ وَحَدِيثُ النَّفْسِ، فَبَقِيَ التَّكْبِيرُ طَرْدًا لَهَا، وَذَلِكَ عَلَىٰ قِسْمَيْنِ: أَغْيَارٌ، وَأَنْوَارٌ، وَكُلُّهَا فِي الحَقِيقَةِ حِجَابٌ عَنِ اللهِ، كَمَا قِيلَ:

وَقَدْ تَحْجُبُ الأَنْوَارُ العَبْدَ مِثْلَ مَا
تُقَيِّدُ مِنْ إِظْلَامٍ نَفْسٌ حَوَتْ ضِغْنَا[١]

---

(١) ٱبْنُ عَجِيبَة: أيْ: قَدْ تَحْجُبُهُ الأَنْوارُ وَتُقَيِّدُهُ عَنِ النُّهُوضِ إِلَىٰ اللهِ مِثْلَ تَقْيِيدِهِ مِنْ أَجْلِ ظُلَمِ نَفْسٍ حَيْثُ غَيَّبَتِ القَلْبَ بِظُلُمَاتِ الهَوَىٰ وَالحُظُوظِ، حَيْثُ حَوَتْ ضِغْنًا ـ أَيْ خُبْثًا ـ فِي البَاطِنِ، وَهْيَ سَائِرُ الأُمُورِ مِنَ الحَسَدِ وَالكِبْرِ وَالحِقْدِ وَغَيْرِهَا. (شرح نونية الششتري، ص٨٨).

إِلَّا أَنَّ صَاحِبَ الأَغْيَارِ صَاحِبُ غَفْلَةٍ عَنِ اللهِ مَا دَامَ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالَة ، وَصَاحِبُ الأَنْوَارِ صَاحِبُ يَقَظَةٍ مَعَ اللهِ مَا لَمْ تَقِفْ هِمَّتُهُ مَعَهَا .

فَوَارِدَاتُ العَامَّةِ: أَغْيَارٌ ؛ لِأَنَّهَا مِنْ قِبَل دُنْيَاهُمْ: مِنْ أَيْنَ يَأْخُذُونَهَا ؟ وَكَيْفَ يَتَوَصَّلُونَ إِلَيْهَا ؟ وَكَيْفَ يَحْتَالُونَ عَلَىٰ جَمْعِهَا ؟ قَدْ غَابَ فِكْرُهُمْ فِي شَأْنِهَا ، فَإِذَا كَبَّرُوا اللهَ بِحُضُورِ قَلْبٍ أَنْسَاهُمُ اللهُ هَمَّهَا ، وَلَوْ مَعَ تِلْكَ اللَّفْظَةِ فَقَط .

وَوَارِدَاتُ الخَاصَّةِ: شَوَارِقُ أَنْوَارٍ ، وَفَهْمُ وَارِدَاتِ أَسْرَارٍ ، فَإِذَا كَبَّرُوا اللهَ سُبْحَانَهُ ارْتَفَعَتْ هِمَمُهُمْ عَنِ الوُقُوفِ مَعَهَا وَالالْتِفَاتِ إِلَيْهَا ، فَلَا يَقِفُونَ مَعَ شَوَارِقِ أَنْوَار ، وَلَا مَعَ فَهْمِ وَارِدَاتِ أَسْرَار ، وَإِنَّمَا مَقْصِدُهُمْ وَغَايَةُ مُرَادِهِمْ وَجْهُ اللهِ العَزِيزِ الجَبَّار .

اللَّهُمَّ ٱجْعَلْ حِرْفَتَنَا التَّذَلُّلَ بَيْنَ يَدَيْك ، وَالتَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا عَلَيْك ، وَقَصْدَنَا إِلَيْك ، وَسَيْرَنَا إِلَيْك ، حَتَّىٰ نَصِلَ بِكَ إِلَيْك .

❋ ❋ ❋

تَكمِلَةٌ

أَذْكُرُ فِيهَا بَعْضَ شَوَاهِدِ فَضِيلَةِ الصَّلَاةِ عَلَىٰ سَائِرِ أَعْمَالِ البِرِّ كُلِّهَا، حُكْمًا، وَقِيَاسًا، وَأَدِلَّةً، وَٱقْتِبَاسًا؛ لِيَعْلَمَ المَأْمُورُ بِهَا مَا لَهُ فِي المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا، وَمَا عَلَيْهِ فِي الاسْتِخْفَافِ بِحَقِّهَا، وَإِنْ كُنْتُ أَغْفَلْتُ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ التَّنْبِيهِ فَالآنَ أَسْتَدْرِكُهُ وَبِاللهِ التَّوْفِيق.

❁ أَمَّا حُكْمُهَا:

فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، أَيْ: فُرِضَتْ عَلَىٰ المُؤْمِنِينَ مُحَجَّرَةً عَلَيْهِمْ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِهَا.

ثُمَّ بَيَّنَ الشَّرْطَ بَعْدَ الحُكْمِ فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

فَالآيَةُ الأُولَىٰ دَلَّتْ عَلَىٰ وُجُوبِهَا، وَأَنَّهُ لَا يُقْبَلُ أَدَاؤُهَا إِلَّا فِي أَوْقَاتِهَا، وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ دَلَّتْ عَلَىٰ المُحَافَظَةِ عَلَيْهَا بِحَيْثُ لَا تُضَيَّعُ بِتَرْكِهَا، وَلَا تُقَدَّمُ وَلَا تُؤَخَّرُ عَنْ وَقْتِهَا، فَصَارَ فِي الآيَتَيْنِ تَأْكِيدٌ عَلَىٰ مُحَافَظَةِ الأَوْقَاتِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] أَمْرٌ أَنْ تُؤَدَّىٰ بِوَصْفِ الخُشُوعِ وَالخُضُوعِ وَالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا عَلَىٰ هَذَا الوَصْفِ فَقَدْ عَمِلَ بِبَعْضِ الأَمْرِ وَتَرَكَ بَعْضَهُ، فَهُوَ إِلَىٰ العِتَابِ أَقْرَبُ وَإِنْ كَانَ مُصَلِّيًا فِي الظَّاهِرِ، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يكُونَ قَدِ اتَّخَذَهَا عَادَةً، وَمَنِ ٱتَّخَذَ الصَّلَاةَ عَادَةً لَا تُنْتَجُ لَهُ مِنْهَا إِفَادَة، وَلَا تَحْصُلُ لَهُ بِهَا زِيَادَة، وَغَايَةُ نَتِيجَتِهَا صَوْنُ العِرْضِ عَنِ المَعَرَّة، وَتُرْجَىٰ لَهُ بَرَاءَةُ الذِّمَّة.

وَأَمَّا قِيَاسًا فَمَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**الصَّلَاةُ مِنَ الدِّينِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَدِ، فَمَنْ لَا رَأْسَ لَهُ لَا حَيَاةَ لَهُ، وَمَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ لَا دِينَ لَهُ**»(١).

وَهَذَا الحَدِيثُ المُبَارَكُ لَهُ مُصَدِّقٌ شَرْعِيٌّ، وَمُصَدِّقٌ حَقِيقِيٌّ:

* **فَالشَّرْعِيُّ**: مَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ بِالكُلِّيَّةِ، كَمَا أَفْتَىٰ بِذَلِكَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ كَعُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَمَنْ تَابَعَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ الصَّحَابَةِ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ، وَمَنْ تَابَعَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ: مِنْ أَنَّ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا لِتَرْكِهَا حَتَّىٰ خَرَجَ جَمِيعُ وَقْتِهَا فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، وَهُوَ كَافِرٌ. وَقَالَ جُمْهُورُ

(١) الطبراني في الصغير (١٦٢) والأوسط (٢٢٩٢).

الصَّحَابَةِ وَعُلَمَاءُ الأُمَّةِ: إِنَّمَا هُوَ مِنْ جُمْلَةِ العُصَاةِ.

* **وَالحَقِيقِيُّ**: مَنْ لَا صَلَاةَ لَهُ بِوَصْفِ الخُشُوعِ لَا عَمَلَ لَهُ مُتَقَبَّلٌ؛ لِأَنَّهُ ﷺ رَتَّبَ عَدَمَ قَبُولِ العَمَلِ عَلَىٰ عَدَمِ الإِتْيَانِ بِالصَّلَاةِ، كَمَا رَتَّبَ مُشَاهَدَةَ عَدَمِ حَيَاةِ الجَسَدِ عَلَىٰ عَدَمِ الرَّأْسِ.

وَهَلْ يُحْكَمُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ رَأْسٌ بِالحَيَاةِ؟

فَالمُشَاهَدَةُ تَرُدُّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الأَمْوَاتِ مُتَّصِلُ الرَّأْسِ بِالجَسَدِ وَلَا حَيَاةَ لِلْجَمِيعِ، فَالحَيَاةُ تَتَضَمَّنُ وُجُودَ الرَّأْسِ، وَوُجُودُ الرَّأْسِ لَا يَتَضَمَّنُ حَيَاةَ الجَسَدِ.

فَنَتَجَ لَنَا مِنْ مُطَابَقَةِ القِيَاسِ أَنَّ وُجُودَ صُورَةِ الصَّلَاةِ ـ الَّتِي هِيَ فِي مُقَابَلَةِ الرَّأْسِ ـ لَا يَتَضَمَّنُ قَبُولَ العَمَلِ ـ الَّذِي هُوَ فِي مُقَابَلَةِ الجَسَدِ ـ، وَإِنَّمَا يَتَضَمَّنُ قَبُولَ العَمَلِ وُجُودُ سِرِّ الإِخْلَاصِ فِيهَا الَّذِي هُوَ فِي مُقَابَلَةِ حَيَاةِ الجَسَدِ.

فَسِرُّ الإِخْلَاصِ فِي الصَّلَاةِ يَتَضَمَّنُ وُجُودَ الصَّلَاةِ، كَمَا أَنَّ حَيَاةَ الجَسَدِ تَتَضَمَّنُ وُجُودَ الرَّأْسِ.

وَصُورَةُ الصَّلَاةِ لَا تَتَضَمَّنُ وُجُودَ سِرَّ الإِخْلَاصِ فِيهَا، كَمَا أَنَّ

وُجُودَ الرَّأْسِ لَا يَتَضَمَّنُ حَيَاةَ الجَسَدِ.

وَقَدْ أَشَارَ إِلَىٰ هَذَا كُلِّهِ السَّيِّدُ ٱبْنُ عَطَاءِ اللهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ حَيْثُ قَالَ فِي حِكَمِهِ: «**الأَعْمَالُ صُوَرٌ قَائِمَةٌ، وَأَرْوَاحُهَا وُجُودُ سِرِّ الإِخْلاصِ فِيهَا**»[١].

وَالإِخْلَاصُ لَا يُوجَدُ إِلَّا بِتَعْظِيمِ الرَّبِّ فِي القَلْبِ، وَالتَّعْظِيمُ لَا يُوجَدُ مَعَ الغَفْلَة، وَإِنَّما يُوجَدُ مَعَ اليَقَظَة، فَإِذَا حَضَرَ الحَقُّ زَهَقَ البَاطِل، كَمَا قَالَ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ إِذَا تَجَلَّىٰ لِشَيْءٍ خَضَعَ لَهُ**»[٢].

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ: مَثَلُ مَنْ صَلَّىٰ بِوَصْفِ الغَفْلَةِ، كَمَثَلِ مَنْ أَهْدَىٰ لِلْمَلِكِ جَارِيَةً جَمِيلَةَ الظَّاهِرِ غَيْرَ أَنَّهَا مَيِّتَةٌ[٣]، فَتَأَمَّلْ فِي قَضِيَّتِهَا، وَٱفْهَمْ قَضِيَّتَكَ مِنْهَا.

---

(١) الحكم العطائية (ص٣٩) الحكمة رقم: ١٠. دار الإمام ابن عَرَفة.

(٢) أحمد (١٨٣٦٥) والنسائي في الكبرىٰ (١٨٧٣) والحاكم (١٢٣٦) وصحَّحه ووافقه الذهبي، وفيه: «خَشَعَ له». وقال العيني: ويؤيده قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. (عمدة القاري، ج٧/ص٦٨).

(٣) **ابْنُ عَطَاءِ اللهِ**: مِثَالُ مَنْ صَلَّىٰ الصَّلَاةَ بِغَيْرِ حُضُورِ قَلْبٍ كَانَ كَمَنْ أَهْدَىٰ لِلْمَلِكِ مِائَةَ صُنْدُوقٍ فَارِغَةٍ، فَيَسْتَحِقُّ العُقُوبَةَ مِنَ المَلِكِ، وَمَنْ صَلَّاهَا بِحُضُورِ القَلْبِ كَانَ كَمَنْ أَهْدَىٰ لَهُ يَاقُوتَةً تُسَاوِي أَلْفَ دِينَارٍ، فَإِنَّ المَلِكَ يَذْكُرُهُ عَلَيْهَا دَائِمًا. (تاج العروس، ص ٢٩).

۞ وَأَمَّا أَدِلَّتُهَا:

فَمِنْ عَظِيمِ قَدْرِهَا عِنْدَ الآمِرِ بِهَا أَنْ جَعَلَ أَخَوَاتِهَا مِنْ قَوَاعِدِ الإِسْلَامِ مِنْهَا مَا هُوَ فَرْضُهُ مَرَّةٌ فِي العُمُرِ كَالشَّهَادَتَيْنِ وَالحَجِّ، وَمِنْهَا مَا هُوَ فَرْضُهُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ وَهُوَ صَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ وَالزَّكَاةُ، وَهِيَ جَعَلَ فَرْضَهَا يَتَكَرَّرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَلَا عُذْرَ يُسْقِطُهَا عَنْ كُلِّ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ بَالِغٍ، سِوَىٰ المَرْأَةِ فِي حَالِ دَمِ حَيْضِهَا وَدَمِ نِفَاسِهَا عَلَىٰ الحَدِّ الَّذِي نَبَّهَتْ عَلَيْهِ العُلَمَاءُ رضي الله عنهم، وَالأَشْغَالُ أَعْذَارُهَا مَعْلُومَةٌ، وَالأَسْفَارُ أَحْكَامُهَا مَشْرُوعَةٌ، وَلَا حَرَجَ فِي الجَمِيعِ.

وَمِنْ عَظِيمِ قَدْرِهَا عِنْدَ الآمِرِ بِهَا أَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَهَا فِي القُرْآنِ، وَحَيْثُ مَا ذَكَرَهَا يَذْكُرُهَا مُقَارَنَةً بِشَرْطِ الإِقَامَةِ، إِمَّا بِلَفْظٍ صَرِيحٍ، أَوْ بِمَعْنًىٰ يَدُلُّ عَلَيْهِ؛ لِيَتَنَبَّهَ المَأْمُورُ إِلَىٰ شَرْطِ مَا أُمِرَ بِهِ فَيُحَافِظُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الإِتْيَانِ بِالشَّرْطِ يَتَضَمَّنُ عَدَمَ صِحَّةِ المَشْرُوطِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنَ المُصَلِّينَ غَيْرَ خَاشِعِينَ، مَعَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فَانْظُرْ كَيْفَ رَتَّبَ حُصُولَ النَّتِيجَةِ عَلَىٰ شَرْطِ الإِقَامَةِ.

وَمِنْ عَظِيمِ قَدْرِهَا عِنْدَ الآمِرِ بِهَا أَنْ جَمَعَ لَنَا فِيهَا جَمِيعَ أَنْوَاعِ مَا

تَعَبَّدَنَا بِهِ ، فَفِيهَا ذِكْرُ اللهِ ، وَتِلَاوَةُ كِتَابِ اللهِ ، وَالدُّعَاءُ لِلَّهِ ، وَالتَّسْبِيحُ لِلَّهِ ، وَالتَّحْمِيدُ لِلَّهِ ، وَالتَّكْبِيرُ لِلَّهِ ، وَمَنْعُ الكَلَامِ لِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ .

وَهِيَ سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ الأُنْسِ بِالله ، وَرَفْضِ مَا سِوَىٰ الله ، وَمُجَاهَدَةِ الشَّيْطَانِ لِئَلَّا يُفْسِدَ عَلَيْهِ عَمَلًا هُوَ لِلَّه ، وَهِيَ سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ جِهَادِ العَدُوِّ فِي سَبِيلِ الله ، وَمَنْعِ الأَكْلِ وَالشَّرَابِ .

وَهِيَ سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ تَطَوُّعِ الصَّوْمِ لِلَّه ، وَنَصْبِ الوُجُوهِ لِكَعْبَةِ اللهِ ، وَهِيَ سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ الطَّوَافِ بِبَيْتِ الله ، وَوُقُوفِ العَبْدِ فِي الصَّلَاةِ لِمُنَاجَاةِ الله ، وَهِيَ سَاعَةٌ مِنْ سَاعَاتِ وُقُوفِهِ بِعَرَفَاتٍ لِدُعَاءِ الخَيْرِ وَطَلَبِ مَا عِنْدَ الله ، وَفِيهَا الدُّعَاءُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ وَاجِبِ الصَّدَقَاتِ عَلَىٰ أَهْلِ الحَاجَاتِ مِنْ عِبَادِ الله .

وَهَذَا كُلُّهُ بِزِيَادَةِ خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ لِلَّه ، وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ لِلَّه ، وَمُنَاجَاةٍ بِتَلَقِّي مَا يَرِدُ مِنَ اللهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلَّه .

وَأَمَّا دَلِيلُ فَضِيلَتِهَا مِنْ طَرِيقِ الاقْتِبَاسِ وَمُطَابَقَةِ القِيَاسِ ، فَهُوَ أَنَّهَا فُرِضَتْ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فِي وَقْتِ مَسْرَاهُ ، فَكَانَ لِلْمُصَلِّي حَظٌّ مِنْ جَمِيعِ مَسْرَاهُ ﷺ :

* فَطَهَارَةُ المُصَلِّي ، وَإِسْبَاغُ وُضُوئِهِ ، وَتَهْيِئَتُهُ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ

رَبِّهِ هُوَ حَظُّهُ مِنْ شَرْحِ صَدْرِهِ ﷺ حَيْثُ شَقَّ جِبْرِيلُ عليه السلام صَدْرَهُ ﷺ، وَغَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، وَمَلَأَهُ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، كَمَا صَحَّ فِي الخَبَرِ.

* وَمَشْيُ المُصَلِّي مِنْ بَيْتِهِ إِلَىٰ المَسْجِدِ هُوَ حَظُّهُ مِنْ سَيْرِهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ.

* وَخَلْعُ المُصَلِّي نَعْلَهُ فِي بَابِ المَسْجِدِ، وَمُبَادَرَتُهُ بِالصَّلَاةِ رَكْعَتَيْنِ تَحِيَّةَ المَسْجِدِ، هُوَ حَظُّهُ مِنْ نُزُولِهِ عَنْ بُرَاقِهِ فِي بَابِ مَسْجِدِ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَصَلَاتِهِ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، كَمَا صَحَّ فِي الخَبَرِ عَنْهُ ﷺ.

* وَرَمْيُ المُصَلِّي أَسْبَابَ الدُّنْيَا، وَطَرْدُ شَوَاغِلِهَا مِنْ قَلْبِهِ، وَتَعَلُّقُ هِمَّتِهِ بِمُنَاجَاةِ رَبِّهِ هُوَ حَظُّهُ مِنِ ارْتِحَالِهِ ﷺ مِنْ عَالَمِ الْمُلْكِ إِلَىٰ عَالَمِ المَلَكُوتِ.

* وَقِرَاءَةُ المُصَلِّي وَتَكْرَارُ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ هُوَ حَظُّهُ مِنِ اخْتِرَاقِهِ ﷺ السَّبْعَ الطِّبَاقَ فَمَا فَوْقَ.

* وَمَا يُفْتَحُ بِهِ عَلَىٰ المُصَلِّي فِي حَالَةِ صَلَاتِهِ مِنْ فَهْمِ أَسْرَارٍ وَشَوَارِقِ أَنْوَارٍ فَهُوَ حَظُّهُ مِمَّا شَاهَدَهُ ﷺ مِنَ العَجَائِبِ بَيْنَ أَطْبَاقِ السَّمَوَاتِ.

* وَرَفْعُ هِمَّةِ المُصَلِّي عَلَىٰ الوُقُوفِ مَعَ شَيْءٍ مِمَّا يُفْتَحُ بِهِ عَلَيْهِ،

وَتَعَلُّقُ قَلْبِهِ بِرَبِّهِ: هُوَ حَظُّهُ مِنْ عَدَمِ الْتِفَاتِ نَبِيِّهِ ﷺ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ هَوَاتِفِ الكَوْنِ وعَجَائِبِ المَلَكُوتِ حَتَّىٰ أَنَاخَ بُرَاقَهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ.

❋ وَقِيَامُ المُصَلِّي وَقُعُودُهُ وَرُكُوعُهُ وَسُجُودُهُ هُوَ حَظُّهُ مِنْ عِبَادَةِ أَجْنَاسِ المَلَائِكَةِ، كَمَا صَحَّ فِي الخَبَرِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ رَأَىٰ مِنْهُمْ جِنْسًا قَائِمًا لَا رُكُوعَ لَهُ، وَجِنْسًا رَاكِعًا لَا رَفْعَ لَهُ، وَجِنْسًا سَاجِدًا لَا قُعُودَ لَهُ، وَجِنْسًا جَالِسًا لَا سُجُودَ لَهُ، فَتَمَنَّىٰ أَنْ تَكُونَ لِأُمَّتِهِ حَالَةٌ مِنْ تِلْكَ الحَالَاتِ يَعْبُدُونَ اللهَ بِهَا، فَجَمَعَ اللهُ تَعَالَىٰ جَمِيعَ ذَلِكَ فِي عِبَادَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ الصَّلَاةُ.

❋ وَمُدَّةُ اشْتِغَالِ المُصَلِّي بِصَلَاتِهِ مِنْ تَكْبِيرَةِ الإِحْرَامِ إِلَىٰ الجَلْسَةِ الوُسْطَىٰ هُوَ حَظُّهُ مِنْ تَرَقِّيهِ ﷺ مِنْ عَالَمِ المَلَكُوتِ إِلَىٰ عَالَمِ العِزَّةِ.

❋ وَجُلُوسُ المُصَلِّي لِتَشَهُّدِهِ هُوَ حَظُّهُ مِنْ وُقُوفِهِ ﷺ فِي مَقَامِ قَابَ قَوْسَيْنِ.

❋ وَتَشَهُّدُ المُصَلِّي هُوَ حَظُّهُ مِنْ تَحِيَّتِهِ ﷺ لِرَبِّهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا أَوْقَفَهُ اللهُ حَيْثُ شَاءَ عَلِمَ أَنَّهُ بِقُرْبٍ مِنْ رَبِّهِ، فَحَيَّاهُ ﷺ بِقَوْلِهِ: «**التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ**» عَلَىٰ حِكَايَةِ مَا قَدَّمْنَاهُ إِلَىٰ آخِرِ التَّشَهُّدِ.

❋ وَرُجُوعُ المُصَلِّي إِلَىٰ تَمَامِ صَلَاتِهِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ الأَوَّلِ هُوَ حَظُّهُ

مِنْ مُرَاجَعَتِهِ ﷺ إِلَىٰ رَبِّهِ يَسْأَلُهُ التَّخْفِيفَ عَنْ أُمَّتِهِ.

وَهَاهُنَا نُكْتَةٌ عَجِيبَةٌ، وَهِيَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ نَبِيَّهُ ﷺ جَمِيعَ مَطْلُوبِهِ فِي مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّىٰ أَحْوَجَهُ إِلَىٰ المُرَاجَعَةِ إِلَيْهِ مِرَارًا، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَعْطَاهُ مَطْلُوبَه، وَكَمَّلَ لَهُ مَرْغُوبَه، فَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ المُؤْمِنِ أَنْ لَا يَمَلَّ مِنْ سُؤَالِهِ لِرَبِّه، وَلَا يَيْأَسَ مِنْ نَيْلِ مَطْلُوبِه، وَلَوْ طَالَتْ مُدَّةُ الإِجَابَة.

وَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْهُ سُبْحَانَهُ مِنْ بُخْلٍ وَلَا عُدْم، وَلَكِنَّهُ يَخْتَارُ لِلْعَبْدِ مَا لَا يَخْتَارُ العَبْدُ لِنَفْسِه، فَالعَاقِلُ مَنْ لَا يَسْأَمُ مِنْ سُؤَال، وَلَا يَتَّهِمُ رَبَّهُ فِي إِعْطَاءِ نَوَال، بَلْ لَا يَزَالُ طَالِبًا مُضْطَرًّا لِرَبِّه، وَلَوْ أَعْطَاهُ جَمِيعَ مَطْلُوبَه؛ إِذِ العَبْدُ مُحْتَاجٌ لِسَيِّدِهِ عَلَىٰ الدَّوَام.

فَحَقٌّ عَلَىٰ مَنْ طَيَّبَهُ الرَّبُّ الرَّحِيم، بِرَائِحَةٍ مِنْ شَذَا السِّرِّ العَظِيم، الَّذِي خَصَّ بِهِ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَلَيْهُ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَىٰ التَّسْلِيم، أَنْ يَتَلَقَّىٰ هَدِيَّةَ اللهِ بِالتَّرْحِيبِ وَالتَّكْرِيم، وَيُعَظِّمَ قَدْرَ هَذِهِ العِبَادَةِ أَشَدَّ التَّعْظِيم، بِحَيْثُ يَقِفُ بِالتَّذَلُّل، وَيُكَبِّرُ بِالتَّعْظِيم، وَيَقْرَأُ وَيَرْكَعُ بِالسَّكِينَة، وَيَرْفَعُ بِالوَقَار، وَيَهْوِي بِالخُضُوعِ، وَيَسْجُدُ بِالخُشُوع، وَيَجْلِسُ بِالتَّوَاضُع، وَيَتَشَهَّدُ بِالأَدَب، وَيُسَلِّمُ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ فِي

قَبُولِ عِبَادَتِه ، وَيَكُونُ وَإِنْ كَانَ بَدَنُهُ أَرْضِيًّا فَرُوحُهُ يَكُونُ سَمَاوِيًّا ، وَقَلْبُهُ عَرْشِيًّا ، وَسِرُّهُ ذَاتِيًّا ، قِبْلَةُ وَجْهِهِ المَسْجِدُ الحَرام ، وَقِبْلَةُ رُوحِهِ البَيْتُ المَعْمُور ، وَقِبْلَةُ قَلْبِه عَرْشُ رَبِّه ، وَقِبْلَةُ سِرِّهِ الذَّاتُ المُقَدَّسَة ، مُتَعَلِّقَ القَلْبِ بِالله ، مُعرِضًا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاه ، فَبقَدْرِ مَا تَبْعُدُ عَوَالِمَهُ عَنْ دُنْيَاه ، يَقْرُبُ بِسِرِّهِ مِنْ حَضْرَةِ مَوْلَاه ، وَبِاللهِ التَّوْفِيق .

وَأَمَّا مَا قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ مِنْ تَحْذِيرِ القَارِئِ مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ فِي حَالِ قِرَاءَتِهِ ، فَأَقُولُ وَاللهُ المُسْتَعَانُ: لَا يَبْعُدُ أَنْ يُدَاخِلَ القَارِئَ شَيْءٌ مِنْ رِيَاءِ الخَلْقِ وَطَلَبِ الثَّنَاءِ مِنْهُمْ عَلَىٰ قُوَّةِ حِفْظِهِ وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يَجُرُّهُ إِلَىٰ غَضَبِ رَبِّهِ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ رِيَاء ، وَالرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ ، وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ عَنْ صَغِيرِ الشِّرْكِ وَكَبِيرِهِ ؛ قَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦] ، وَالشَّيْءُ يُطْلَقُ عَلَىٰ القَلِيلِ وَالكَثِيرِ .

وَيَكْفِي العَاقِلَ نُفُورًا مِنْ دُخُولِ الخَلْقِ فِي مُعَامَلَةِ الخَالِقِ كَوْنُهُ ذَنْبًا مُشْتَرِكًا فِي الرُّتْبَةِ مَعَ ذَنْبٍ حَكَمَ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ لِمَنْ لَقِيَهُ بِهِ ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] وَإِنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ الشِّرْكَ الجَلِيَّ: وَهُوَ اعْتِقَادُ إِلَهٍ مَعَ اللهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرِّيَاءَ أَدْوَنُ مِنْهُ ؛ لِأَنَّهُ شِرْكٌ عَرَضَ ، أَعْنِي يَعْرِضُ لِقَلْبِ الإِنْسَانِ عِنْدَ

رُؤْيَةِ عَمَلِ الطَّاعَةِ مِنْ قِبَلِ حَوْلِ العَبْدِ وَقُوَّتِهِ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَعَلَىٰ هَذَا لَا بُدَّ مِنَ العِتَابِ عَلَيْهِ، وَ«**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»(١).

وَيَكْفِي فِي وَعْظِ صَاحِبِهِ مَا رَوَىٰ المُنْذِرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِإِسْنَادِهِ إِلَىٰ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُومَ فِي الدُّنْيَا مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَةٍ إِلَّا سَمَّعَ اللهُ بِهِ عَلَىٰ رُؤُوسِ الخَلَائِقِ**»(٢)، يَعْنِي يُنَادِي عَلَيْهِ: هَذَا العَبْدُ المُرَائِي.

وَعَنْ أَبِي هِنْدٍ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ رَاءَىٰ بِدِينِ اللهِ لِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ اللهِ**»(٣).

وَالعَجَبُ مِمَّنْ يَتَشَوَّفُ إِلَىٰ الثَّنَاءِ مِنَ الخَلْقِ وَيَنْسَىٰ مِنَّةَ الخَالِقِ عَلَيْهِ حَيْثُ أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَا يُوجِبُ الثَّنَاءَ بِلَا مُنَازِعٍ، وَلَوْ شَاءَ لَأَظْهَرَ عَلَيْهِ مَا يُوجِبُ ذَمَّهَ وَاسْتِنْقَاصَهُ بِلَا مُنَازِعٍ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ رِجَالِ الكَشْفِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ القَارِئَ إِذَا شَرَعَ فِي قِرَاءَتِهِ

---

(١) البخاري (٦٥٣٦) ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) الطبراني في الكبير (٢٣٧) وعنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣٧) وقال: إسنادُهُ حسن.

(٣) الطبراني في الكبير (٨٠٥).

يَفِيضُ القُرْآنُ مِنْ قَلْبِهِ كَفَيَضَانِ العَيْنِ بِالمَاءِ، وَيَجْرِي مِنْ صَدْرِهِ إِلَىٰ لِسَانِهِ، وَيَخْرُجُ نُورُهُ مِنْ فَمِهِ كَسُنْبُلَةِ الصَّبَاحِ يَتَمَايَلُ يَمِينًا وَشِمَالًا، يُشِيرُ بِبَيَانِ حُجَجِهِ لِلسَّامِعِينَ.

يُصَدِّقُ هَذَا مَا رَوَىٰ صَاحِبُ كِتَابِ «الحَبَائِكِ فِي أَخْبَارِ المَلَائِكِ» أَنَّ لِلَّهِ مَلَكًا إِذَا شَرَعَ القَارِئُ فِي قِرَاءَتِهِ يَجْعَلُ المَلَكُ فَمَهُ عَلَىٰ فَمِ القَارِئِ[1] صِيَانَةً لِنُورِ القُرْآنِ أَنْ يَتَبَدَّدَ فِي الهَوَاءِ.

وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِحَامِلِهِ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا، يُعْطِي الرُّبُوبِيَّةَ حَقَّهَا مِنْ لَوَازِمِ العُبُودِيَّةِ، وَيُلْزِمُ العُبُودِيَّةَ وَصْفَهَا مِنْ أَحْكَامِ الرُّبُوبِيَّةِ، يَشْهَدُ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ حَيْثُ حَمَلَهُ حَمْلَ نُورِهِ، وَأَبَاحَ لَهُ التَّقَلُّبَ فِي مَيْدَانِ أَسْرَارِهِ، لِيَكُونَ سَيْرُهُ إِلَيْهِ عَلَىٰ أَشِعَّةِ أَنْوَارِهِ، وَيَكُونَ لِدِينِ اللهِ مِنْ جُمْلَةِ أَنْصَارِهِ، وَلَا يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا، وَطَاعَةَ اللهِ وِزْرًا، فَيَكُونُ مِنَ المُشَارِ إِلَيْهِمْ بِصِيغَةِ التَّعَجُّبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٢٩].

---

(١) الحبائك للسيوطي (ص٨٤) وأصله في الكبير للطبراني (٥٦٤) عن أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ أنه أتىٰ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني كنتُ أقرأُ البارحةَ سورة الكهفِ فجاء شيءٌ حتىٰ غَطَّىٰ فَمِي، فقال رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ السَّكِينَةُ جَاءَتْ تَسْتَمِعُ القُرْآنَ**».

وَوَجْهُ أَدَبِ القَارِئِ مَعَ رَبِّهِ فِي حَالِ قِرَاءَتِه ، وَأَقْرَبُ مُعِينٍ لَهُ عَلَىٰ دَفْعِ وَارِدِ رِيَاءِ الخَلْقِ عَنْ قَلْبِه: هُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِسَانَهُ نَائِبٌ فِي التِّلَاوَةِ عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُسْمِعَ الخَلْقَ كِتَابَ اللهِ ﷻ ، وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، فَيَكُونُ تَرْتِيلُهُ وَتَبْيِينُهُ وَتَحْسِينُهُ قِيَامًا بِحَقِّ النِّيَابَةِ عَنْ لِسَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَامْتِثَالًا لِأَمْرِ اللهِ ، وَابْتِغَاءً لِرِضْوَانِ الله ، مُقْتَدِيًا فِي ذَلِكَ بِقَضِيَّةِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه حَيْثُ كَانَ يَتْلُو القُرْآنَ بِتَرْتِيلٍ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَسْتَمِعُ خَلْفَ حِجَابٍ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ﷺ قَالَ: «**أَحْسَنْتَ فِي قِرَاءَتِكَ**» ، فَقَالَ لَهُ رضي الله عنه: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تُنْصِتُ لِي يَا رَسُولَ اللهِ لَحَبَّرْتُهُ تَحْبِيرًا[١].

فَعَلَىٰ هَذَا فَوَجْهُ الكَمَالِ فِي القِرَاءَةِ هُوَ الفَصَاحَةُ وَالبَيَانُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَمْكَنُ لِلسَّامِعِينَ فِي تَدَبُّرِ الآيَاتِ وَمَعْرِفَةِ الأَحْكَامِ ؛ إِذْ هُوَ المَقْصُودُ مِنِ اسْتِمَاعِ القُرْآنِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وَأَقْرَبُ أَيْضًا لِلتَّخَشُّعِ المُشَارِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وَلْيَجْعَلِ القَارِئُ نَفْسَهُ مِنْ جُمْلَةِ السَّامِعِينَ ؛ لِأَنَّهُ أَوْلَىٰ بِاسْتِمَاعِهِ

---

(١) أصل الحديث في البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣).

وَتَدَبُّرِ أَحْكَامِهِ مِنْ غَيْرِهِ، وَهَكَذَا يَكُونُ الخَطِيبُ وَالوَاعِظُ، وَلَا يَشْغَلُهُ تَحْسِينُ اللَّفْظِ عَنْ تَدَبُّرِ المَلْفُوظِ بِهِ، فَيَكُونَ مِنَ المُشَارِ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وَلِذَا قِيلَ فِي الحِكْمَةِ: عِظْ نَفْسَكَ بِمَا تَعِظُ بِهِ أَخَاك، وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنْ خَالِقِكَ فَإِنَّهُ يَسْمَعُكَ وَيَرَاك.

وَعِبَارَةُ الصُّوفِيَّةِ فِي هَذَا المَعْنَىٰ: «**كَمْ مِنْ ذَاكِرٍ لِلَّهِ نَاسٍ لِلَّه، وَكَمْ مِنْ قَارِئٍ لِكِتَابِ اللهِ خَزٍ عَلَىٰ الله**»، أَيْ: كَمْ مِنْ ذَاكِرٍ لِلَّهِ بِلِسَانِه، نَاسٍ لِأَحْكَامِ اللهِ عِنْدَ أَخْذِه وَإِعْطَائِه، لَا يُبَالِي بِمُحَرَّمٍ وَلَا مَكْرُوهٍ، قَوْلًا وَفِعْلًا، إِذِ المَطْلُوبُ مِنَ الذِّكْرِ تَعْظِيمُ حُرْمَةِ المَذْكُور، وَكَمْ مِنْ تَالٍ لِكِتَابِ اللهِ لَا يَقِفُ عِنْدَ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فِي أَخْذِهِ وَإِعْطَائِهِ إِلَّا وَيُخْزِيهِ اللهُ فِي حَالِ تِلَاوَتِهِ لَهُ.

وَقَدْ نَهَىٰ اللهُ عَنْ جَلِيِّ الشِّرْكِ وَخَفِيِّهِ، وَحَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَحَرَّمَ أَكْلَ المَالِ بِالبَاطِلِ، وَضَابِطُ الجَمِيعِ فِي ظَوَاهِرِ الأَحْكَامِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وَضَابِطُ الجَمِيعِ فِي بَوَاطِنِ الأَحْكَامِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَمَلَ بِالإِخْلَاصِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الانْتِكَاص وَرِيَاءِ النَّاس، يَا رَبَّ العَالَمِين.



فهرس الموضوعات







المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب

La Maghrébine pour l'Impression
et la Publication du Livre

22، نهج المقاولين – المنطقة الصناعية الشرقية – أريانة – تونس
الهاتف : 683 837 70 216+ – الفاكس : 975 838 70 216+


دار الإمام ابن عرفة
تونس